

السنة السادسة (رمضان سنة ١٣٥٨ هـ - أكتوبر سنة ١٩٣٩ م) العدد الثاني

صحيفة دار العلوم

م ١٩٣٤ ع ٢

نصدرها بجماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

رئيس التحرير

محمد علي مصطفى

المدير

محمد نجيب حيازة

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادي دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلي

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي بيومي

المدرس بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوي

٢٠ قرشاً	_____	في القطر المصري
٦ شلنات انجليزية	_____	خارج القطر
٥ قروش	_____	ثمن العدد

مطبعة العلوم بشارع الانجليج بحسبة لافا

إِنْ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَنْ يَمُوتَ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَنْ يَحْيَا الْوَجَدَ هَا يَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَارٍ
وَيَحْيَا فِي أَمْرِ الْعُلُوفِ

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

احتفال جماعة دار العلوم

بتخليد ذكرى المرحوم

أبو الفتح الفقى

فى الساعة السادسة والنصف من مساء الثلاثاء ١١ يوليه سنة ١٩٣٩ احتفلت جماعة دار العلوم فى نادى دارالعلوم بتخليد ذكرى المغمور له «أبو الفتح الفقى» قد انتظم النادى كثيرين من صفوة القوم ورجال التربية والتعليم بمصر وكان فى مقدمة الحاضرين حضرة الشيخ الجليل صاحب السعادة أمين باشا سامى وأصحاب الغزة الأساتذة محمد العشماوى بك ومحمد عوض إبراهيم بك ومحمود الدرويش بك وأمين سامى حسونه بك ومحمد رفعت بك وعبدالرازق القاغى بك ومحمود البطراوى بك ومحمد أحمد جاد المولى بك وغيرهم من أعضاء مجلس الإدارة وهيئة التدريس بدار العلوم وأساتذة اللغة العربية فى المعاهد المختلفة . وكان فى استقبالهم حضرة الأستاذ نجيب حتاته رئيس جماعة دار العلوم تعاونه اللجنة التنفيذية التى ألفت الإشراف وتنظيم الاحتفال .

ولما حضر صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف قابله الأعضاء واستقبلوه أحسن استقبال ، ثم مدت الموائد تحمل مالد وطاب وجلس إليها المدعوون فأكلوا وشربوا ثم وقف الأستاذ نجيب حتاته وألقى الكلمة الآتية :

معالي الوزير

أستاذنا أمين باشا سامي

حضرات الإخوان

أحييكم أجمل تحية، وأرحب بكم أتم ترحيب، وأشكر لكم تلييتكم دعوتنا،
وتفضلكم بتشريف حفلة ذكرى المغفور له أبي الفتح الفقي رئيس جماعتنا السابق.
سادق:

تخرج الفقيه في دار العلوم سنة ١٩٠٧ ثم اختير عضوا للبعثة في إنجلترا،
وعاد موقفا فاشتغل بالترجمة والتحرير في الإدارة التي أنشأتها وزارة المعارف
في ذلك الوقت لوضع مصطلحات للعلوم والفنون كي تكون أساساً لتدريس
المواد المختلفة باللغة العربية بعد أن كانت تدرس باللغات الأجنبية.

ثم اختير للتفتيش في مدارس الوزارة وجاءت الثورة الوطنية فكان من
البارزين في ميادينها وقد اختير نقيبا للمعلمين فقام بأعباء هذا العمل على أكمل
وجه، ودافع عن حقوق المعلمين دفاعا مجيدا، ثم رشحته كفايته ليكون عضوا
في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ وفي سنة ١٩٢٥ عاد إلى الوزارة مفتشا، ثم معاوننا
لمراقب التعليم الأولى، وأخذ يتقلب في الوظائف حتى انتهى به المطاف إلى
دار العلوم، إذ عين وكيلها فأخذ يعمل لإسعاد أبنائها والمحافظة على كيانها
حتى عاجلته المنية أشد ما تكون الحاجة إليه.

ولقد كان في كل وظيفة تولاهامثال الرجل العامل والقائد المحنك، يريح
مروءسيه، ويأسرهم بطيب شمائله، ورقة قلبه، ودقة عمله.

ولم ينس الفقيه واجبه الاجتماعي بجانب عمله الحكومي بل كان قائداً
للمعلمين سنين طويلة، ثم قائداً لطائفته يسهر لراحتها، ويعمل على رفع مكانتها،
ويتعرض لللاذنى بسببها حتى كون لها جماعة محترمة، وأسس لها ناديا، الذي
يضم أبناء دار العلوم ويوجه جهودهم لخير التعليم.

فكان لزاما علينا وعلى الإخوان أن نحى ذكراه ونقدر فضله ؛ وفاء بحقه
واعترافا بجليل خدماته ، فجمعت مبالغ من المال اشترينا بها ٥٦ سهما من سهوم
مصرف مصر جعلنا ربحها جائزة سنوية تمنح للفائزين الأول والثاني من
خريجي الدار في امتحان اللغة العربية ، وقد استحق الجائزة الأولى الأستاذ
أحمد عبد العظيم ، والجائزة الثانية الأستاذ عبد العال فحج النور .

ثم قدم الجائزتين إلى حضرة صاحب المعالي الوزير فقدمهما إلى الفائزين ،
وبعد ذلك ألقى معاليه الخطبة الآتية :

إخواني :

لا يسعني إلا أن أشكر حضرة رئيس جماعة دار العلوم على ماوجهه إلى من
ثناء . وحق على قبل هذا أن أقدر عملكم الجليل لتخليد ذكرى فقيدكم بالا كتاب
لهذه الجوائز التي توزع على الناجحين الأولين اليوم . وستوزع على الناجحين
الأوليين في مثل هذا الموعود من كل عام ، وإني إذ أقدر ماقيم به تخليداً لذكرى
رجل كان له في العمل العظيم الذي تضطلعون به ، وأعنى تعليم اللغة العربية —
أثر كبير لا يفوتني القول بأن هذا قليل بالقياس إلى ما يجب علينا للذين يغادرون
الحياة بعد أن يتركوا فيها أثراً خالداً .

إخواني :

يخطئ جداً من يظن أن العاملين الصالحين المصلحين يزولون من الحياة بموتهم ،
فهذا الجسد الذي يقف ليس شيئاً في تقويم الرجال ، وإنما قيمتهم فيما يقومون
به من أعمال صالحة ، والأعمال الصالحة باقية شاهدة لأصحابها في هذه الحياة
الدنيا ، شاهدة لهم عند الله في الحياة الآخرة .

وإنه ليسعدني أن يكون إلى جانبنا في هذا الحفل ذلك الرجل الكبير
أمين سامي باشا الذي عمل كثيرا في هذه الحياة ، وإني وإن لم أسعد بالتلبية له
فقد كان والدي وبعض أعمامى من تلاميذه ، وإذا كنت مدينا لهؤلاء بالفضل

كاتب ، فإني مدين لأمين باشا كنفيد .

كان أمين باشا ناظراً لدار العلوم وكان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من معاصريه فتحدث عن اللغة العربية فقال « تموت اللغة العربية في كل مكان وتحيا في دار العلوم » .

ولقد كان أمين باشا يقدر المهمة العظيمة الملقاة على عاتق معلم اللغة العربية ومعلم اللغة في كل أمة .

ولهذا كان يتقدم للدار ثلثمائة طالب فلا يختار منهم — كما قال لي — سوى أربعة أو خمسة .

إخواني :

لقد ظلت دار العلوم سبعين عاماً تنهض بمهمتها على وجه يدعو إلى الفخر ، ولكن الزمن يتغير ، ومهمة دار العلوم تتغير ، ولهذا دعوكم إلى التفكير معي فيما يجب أن يدخل على دار العلوم من إصلاح حتى تسير العصر .

لم يكن في مصر منذ مائة عام أكثر من بضعة كتاب . فلما أنشئت دار العلوم كانت مهمتها شاقة ويكفي أن تاملوا كتابات الجبرتي وابن إياس ومن إليهما من العلماء والمؤرخين لتروا مبالغ ما اضطاعت به الدار من عبء ، نرى غزارة في المادة ، واستقلالاً في الرأي ، وحرية في التفكير ، وابتكاراً في المعاني ، ولكتنا نرى مع هذا أسلوباً مهمللاً ، وتعبيراً متخاذلاً ، فكان غرض دار العلوم لإحياء مراث اللغة وبعث هذا الكنز الذي كاد يختفي تحت الركام .

استطاعت دار العلوم بمجهود رجالها أن تعيد هذا الضياء الخاني إلى اللغة العربية في قواعدها وأدبها وبلاغتها وأن تحيي مجدها القديم الذي كان يفاخر به الأمويون والعباسيون ، بل استطاعت أن تبعث فيها القوة والنشاط ، وإذا كنا — نحن كتاب اليوم — مدينين لأحد فديننا لآبناء دار العلوم .

لقد ألقت كتب في الأدب وفي القواعد وليكن الحكم عليها ما يكون ،

ولكن الذين جمعوا ورتبوا هم أبناء دارالعلوم، وإذا كانت كل مهنة تتغير بتغير الزمن، فهمة رجل اللغة أخطر مهمة، ولهذا يجب أن يظل صاحبها في دأب مستمر وإطلاع متصل، وأن يعد عن ذهنه أنه بتخرجه من المعهد الذي تعلم فيه قد أتم العلم وجمع المعرفة، فن يقول بهذا — إن لم يكن قد وهبه الله سرا لانهله — دعى مغرور لاخير فيه، ولا رجاء منه، فابعثوا في نفوس أبنائكم حب الاطلاع والرغبة في التحصيل، وقد خطت مصر خطوات واسعة في سبيل نقل العلوم من اللغات الأجنبية إلى العربية، ونحن نطالب الجامعة الآن بأن تدرس العلوم جميعا باللغة العربية، لأن اللغة مقوم أساسى من مقومات القومية، فإذا كانت أجنبية كان الشعور بالقومية ضعيفا، وكانت نفسية الشعب ضعيفة.

وعليكم بعد الجهد الماضى، أن تخطو خطوة جديدة، تلك هى قومية اللغة وقومية العلم، وتيسير اللغة لتتسع لهذا العلم، فنحن نعلم أن العربية غنية، وأنها كفيلة بأن تسد مطالب العلوم كلها. وإنى إذ أدعو إلى هذا لا أدعو إليه كوزير للمعارف — ولقد مكنتنى هذه الصفة من أن ألس جهدكم بوضوح — ولكنى أدعو إليه ككاتب عربى.

ثم عليكم أن تقرّبوا بين لغة الكتابة ولغة التخاطب، وليس تحقيق هذا بالأمر العسير، فقد كانت فرنسا منذ خمسين عاما مختلفة اللهجات باختلاف المقاطعات، ولكنها استطاعت بعد انتشار التأليف وذيوع الصحف، أن توحد بين هذه اللغات جميعها، وبينها وبين لغة التخاطب.

وقد انتشر التأليف في مصر وذاعت الصحف إلى حد كبير، وعليكم أن تواصلوا هذا الجهد حتى يوتى ثمرته المرجوة.

وإنى لو اتق من أنكم جميعا تشعرون بشعورى، وتحسون إحساسى، ومتى اتحد الشعور كفى أن يقول إنسان كلمة الحق ليستجيب الناس نداه.

وإني أقرر اطمئنانى إلى أن اسم دار العلوم سيبقى دائماً علماً لنهضة اللغة العربية،
وسنسير بها خطوة بعد خطوة، ومرحلة إثر مرحلة، وأن رجالها سيشعرون
دائماً بأنهم كلما أتموا مرحلة تفتحت أمامهم أبواب مراحل جديدة، شأنهم في
ذلك شأن طالب السعادة كلما أمسك بشيء شعر بأنه ينقصه أشياء. وشعور
الإنسان بالنقص آية الأمل في الكمال.

وإن اعترافى بالدين لا ببناء دار العلوم فى تعلم اللغة العربية يشعرنى بأنه
واجب على أن أسير معهم، وأن أعاون وإياهم على تحقيق مانرجوه جميعاً
للغة العربية.

ويشجعنا على الاضطلاع بهذا العبء شباب مليكنا المحبوب الذى يبعث
الحياة قوية فتية فى هذا الوطن وفى جميع مقوماته ؟

هذا وقد أعد كثير من أبناء دار العلوم مجموعة طيبة من الخطب والقصائد
لم يتسع وقت معالى الوزير لسماعها ومن بينها قصيدة للآستاذ عبد العزيز عتيق،
وقصيدة للآستاذ عبد العظيم بدوى وقد نشرناهما فى موضع آخر.

مسألة تدريس اللغة العربية

توحيد التعليم في المعاهد

مذكرة معالي الدكتور هبكل باشا وزير المعارف السابق

أشار معالي الوزير في مقدمة المذكرة، إلى ناحيتي المشكلة: وهما مسألة تهيئة معلم اللغة العربية، ومسألة المسابقة بين خريجي المعاهد الثلاثة: دارالعلوم، وكلية الآداب في الجامعة، وكلية اللغة العربية في الأزهر.

ثم قال: وهذه « المسألة الثانية ثانوية الأهمية في الواقع. وهي إنما نشأت عن الوضع الخاص بمحاولة إصلاح المعاهد الدينية، وقد ترتب على هذا الوضع أن تخرج عدد من أبناء كلية اللغة العربية في الأزهر. وفي نفس الوقت أوشك عدد من أبناء قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول من التحقق فيهم شروط خاصة من حيث الثقافة الإسلامية - على التخرج؛ لذلك فكر هؤلاء وأولئك في مستقبلهم. وكان اعتماد خريجي كلية اللغة العربية بالأزهر على النص الذي ورد في قانون المعاهد الدينية سنة ١٩٣٦.

« فلما نظر مجلس الوزراء في مطالب هؤلاء الخريجين من الأزهر لم يجد خيرا من المسابقة بينهم وبين الذين تخرجوا في دارالعلوم وفي جامعة فؤاد الأول، على ما في هذا الحل من مساس بما لوزارة المعارف من حق مطلق في اختيار المعلمين الذين يعينهم في مدارس الوزارة، يقابل مسئوليته عن التعليم في هذه المدارس.

أما والمسابقة مسألة ثانوية فإن وزارة المعارف تدع تفاصيل الكلام فيها إلى المعاهد الثلاثة التي يعينها أمرها بالذات. وكل ما تلاحظه أن نتائج هذه

المسابقة يجب أن تكون متساوية بالنسبة لجميع الذين يدخلونها . ومعنى ذلك أن يكون للمتفوقين الأولين منهم حظ التعيين في جميع وظائف اللغة العربية بمعاهد الدولة سواء أكانت معاهد دينية أم معاهد مدنية .

ومن الحيف أن يفضل قوم على قوم من المتسابقين في هذه الناحية لغير شيء إلا لاختلاف المعاهد التي تخرجوا فيها . ويبدو هذا الحيف ظاهرا في الوضع التالي : تفوق الخمسة الأول من دار العلوم فعينوا في وظائف وزارة المعارف المينة بقرار مجلس الوزراء ، وتلاهم خمسة أو أكثر من دار العلوم كذلك ، ثم جاء المتأخرون من كلية الآداب أو من كلية اللغة العربية بالأزهر . أبناء كلية اللغة العربية بالأزهر لا يصيبهم أي ضرر مهما تأخروا إذا احتفظ لهم بوظائف التدريس في المعاهد الدينية . فأما إذا تفوق جماعة من أبناء الأزهر واشترك معهم في التفوق جماعة من أبناء دار العلوم ، فإن الأولين يشاركون في وظائف التعليم بوزارة المعارف ، بينما يتمتع على الآخرين الالتحاق بوظائف التعليم في المعاهد الدينية .

لذلك يكون من الإنصاف كما قدمنا أن يتساوى المتفوقون في الحقوق . وليزول كل لبس في هذا الأمر ، نرجو أن يكون رأى اللجنة فيه صريحا وأن تقترح عند الضرورة تشريعا مؤقتا يشبه ما يأتي :

« الحاصلون على إجازة التدريس من دار العلوم يكون لهم حق التدريس بالمعاهد الدينية .

ويكون هذا الحق للحاصلين على ليسانس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، بشرط أن يكونوا حاصلين على الشهادة الثانوية من الأزهر أو من تجهيزية دار العلوم أو على دبلوم معهد التربية .

ويترتب لهؤلاء وأولئك هذا الحق ، إذا اجتازوا امتحان مسابقة يعقد

بينهم وبين خريجي كلية اللغة العربية بالأزهر .

« أما مسألة تهيئة معلم اللغة العربية فتلك هي المسألة الجوهرية . ويجب

لبحثها أن نفصل أولا في إمكان توحيد التعليم أو عدم إمكانه في المعاهد الدينية والمعاهد المدنية في القسمين الابتدائي والثانوي منهما . فلا ريب أن الفصل في هذه المسألة ييسر تحديد الجهة التي تتولى تهيئة هذا المعلم ليكون قديرا على الاضطلاع بمهمته وعلى أدائها أحسن أداء .

« ويجب أن نسارع إلى القول بأننا متى فصلنا في مسألة توحيد التعليم من حيث إمكانه وعدم إمكانه ، فقد وجب أن يترتب على الرأي الذي نصل إليه كل آثاره .

لقد لاحظ واضعو الدستور المصري الحال التي كانت عليها المعاهد الدينية حين وضعه . فجعلوا لهذه المعاهد كيانا خاصا ونظاما خاصا باعدا بينها وبين النظام الدستوري العام للدولة . ذلك لأن هذه المعاهد كانت وحدة مستقلة لاصلة لها بوظائف الدولة وأعمالها . بل كان رجال القضاء الشرعي يتعلمون في مدرسة القضاء الشرعي تحت سلطان وزارة المعارف . وكان معلمو اللغة العربية — كما لا يزالون — يتعلمون في دار العلوم تحت سلطان وزارة المعارف . وكان وزير المعارف هو المسئول دستوريا عن هاتين المدرستين . يضع لها النظم والبرامج ، ويختار لها الأساتذة ويهيئ لها الامتحانات ، كل ذلك يقوم به مستقلا لا شريك له فيه ، متمتعا بحقه وبمسئوليته الدستوريين .

أما المعاهد الدينية فكانت بعيدة عن الاشتراك في شئون الدولة ، وكان عملها دينيا بحتا كاسمها ، وكان الذين يتخرجون من أبنائها يعودون إلى التعليم فيها ، لا شأن لهم بما سوى ذلك من وظائف الدولة ولا مطمع لهم فيه ، فلم يكن

لذلك عجباً أن تخرج هذه المعاهد عن النظام الدستوري العام ، وأن يكون لها استقلال خاص .

فلما تولى الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي مشيخة الجامع الأزهر في سنة ١٩٢٨ ، رأى أن المعاهد على وضعها ذاك ، لا تؤدي الغرض الذي أنشئت أول أمرها لأدائه ، بل لعلمها تهم بالتأخر والرجعية ؛ لذلك وضع مذكرته الموجودة تحت نظر اللجنة ، وطالب فيها توحيد التعليم بين القسمين الابتدائي والثانوي بالمعاهد الدينية والقسمين الابتدائي والثانوي بالمدارس الأميرية ، مع فارق بسيط : ذلك أن تحمل العلوم الدينية في المعاهد محل اللغات الأجنبية في المدارس الأميرية ، أما فيما سوى ذلك فتكون البرامج هي برامج المدارس الأميرية . وعلى أساس هذا التوحيد أقام فضيلة الأستاذ الأكبر نظام الكليات الثلاث ، وجعل للمتخرجين فيها أهليات خاصة للقضاء الشرعي ولتعليم اللغة العربية ، ورتب على ذلك إلغاء مدرستي القضاء الشرعي وتجهيزية دار العلوم تمهيدا لالغاء دار العلوم .

النتيجة الطبيعية لهذا النظام الذي أدمج المعاهد الدينية في الدولة وجعل لخريجها أهليات لتولي وظائفها ، أن تندمج هذه المعاهد في النظام الدستوري للدولة ، وأن تضم إلى وزارة المعارف ، شأنها في ذلك شأن المعاهد في بلاد العالم جميعا . ولعل الأستاذ الأكبر قد قدر هذه النتيجة المنطقية بدليل أنه رأى أن يكون لوزارة المعارف اشتراك جوهري وإشراف فعلي على كلية اللغة العربية من حيث وضع برامجها ، والتفتيش عليها ، وامتحان طلابها ، والاستعانة بأساتذة وزارة المعارف على تعليم المواد التي لا يوجد لها معلمون بين رجال المعاهد الدينية . بل لقد ذهب فضيلته إلى وجوب أن يكون الامتحان النهائي لكلية اللغة العربية هو بعينه الامتحان النهائي لدار العلوم مع أن وزارة المعارف هي التي تضع هذا الامتحان النهائي وهي التي تشرف عليه وتقوم به في كل أدواره .

لكن الاتجاهات السياسية والدستورية في ذلك الوقت حالت دون تنفيذ

هذا الإصلاح الذي أراده الشيخ الأكبر للمعاهد الدينية للبلوغ بها إلى غايته، وقبلت أدت هذه الظروف إلى أن استقال فضيلة الأستاذ الشيخ المراغي من مشيخة الأزهر، ثم استقالت الوزارة التي اقترح في عهدها ذلك النظام الذي يرمى إلى توحيد التعليم في الدولة—وكانت وزارة حضرة صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا—وقد شغلت مصر بعد ذلك بانتخاب عدلى باشا في سنة ١٩٢٩ ثم بمفاوضات النحاس باشا في سنة ١٩٣٠ ثم بالانقلاب الدستوري الذي تلا ذلك في سنة ١٩٣٠ أيضا والذي لم ينفذ إلا في يونيو سنة ١٩٣١.

في هذه الفترة المضطربة سياسيا ودستوريا صدر قانون الأزهر في سنة ١٩٣٠ وقد أهمل هذا القانون فكرة توحيد التعليم التي رسمها فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي ونص عليها صراحة في مذكرة. ومع ذلك استبقى هذا القانون الصيغة الظاهرة للكيان النظامي الذي أراد فضيلته أن يقيم المعاهد الدينية على شاكلة: أنشئت كليات، وأنشئت معاهد ابتدائية، وثانوية، ولكن الجوهر الذي طالب به الشيخ الأكبر لم ينفذ شيء منه. لم تغير الكتب. لم تغير برامج التعليم إلى الحد الذي يحقق فكرة توحيد التعليم مع المدارس الأميرية. لم يتغير الأساتذة بأكثر من استعارة بعض أساتذة وزارة المعارف عن طريق الدب للتدريس في المعاهد الدينية وتعيين طائفة من مدرسي العلوم الحديثة ثم الاستغناء عن أكثر هؤلاء بعد أن عدلت مناهج التعليم مرة أخرى في سنة ١٩٣٦ كما سنشير إليه فيما بعد.

على ذلك ألغيت مدرسة القضاء الشرعي اكتفاء بكلية الشريعة وألغيت تميزية دار العلوم تمهيدا لإلغاء دار العلوم نفسها. ثم بقيت المعاهد الدينية محتفظة باستقلالها بعيدة عن النظام الدستوري للدولة.



ولقد عاد فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي إلى مشيخة الجامع الأزهر

في سنة ١٩٣٤ ، وكان المقهور أن يعود فضيلته بهذه المعاهد إلى النظام الذي أراده لها . لكن الحوادث كثيرا ما تكون أقوى من الرجال على حد تعبير السياسة وكثيرا ما تضطرهم إلى السير في طريق غير الذي رسموه . والظاهر أن ذلك هو الذي واجه فضيلة الشيخ الأكبر والذي اضطره إلى الرجوع عن فكرته الأولى بمجاعة للأحوال التي لم يكن من مجارتها بد .

بل لقد رجعت المعاهد بعد فترة من عودة فضيلته إليها ؛ لتكون أكثر اتصالا بماضيها ؛ فقد ألغى قانون سنة ١٩٣٠ - على ما كان بينه وبين فكرة فضيلته الأولى من اختلاف - وصدر بديلا منه قانون سنة ١٩٣٦ الذي رد المعاهد الدينية إلى نظامها الأول وإن بقيت في الصورة على الوضع الذي يسمونه «الوضع النظامي» ؛ إذ أنقص من تدريس العلوم الحديثة بحجة أنها تطغى على العلوم الدينية والشرعية . ولقد كان هذا التعديل في القانون إمعانا في الابتعاد عن فكرة توحيد التعليم العام في بلاد الدولة ؛ إمعانا يدعو إلى التفكير فيما إذا كان هذا التوحيد مستطاعا حقا مع الاطوار التي مرت بها المعاهد الدينية في أدوارها المختلفة .

ولو أن التوحيد كان مستطاعا وكانت مذكرة الشيخ الأكبر في سنة ١٩٢٨ قد نفذت ، لوجب أن تضم المعاهد الدينية إلى وزارة المعارف كما قدمنا ، وعند ذلك تحل مسألة تهيئة معلم اللغة العربية حلا طبيعيا ؛ لأن وزير المعارف سيكون مسئولاً عن المعاهد المدنية والمعاهد الدينية جميعا ، وسيضع في حدود مسئوليته الدستورية النظام الذي يكفل تهيئة معلم اللغة العربية لهذه المعاهد القائمة على أساس من توحيد التعليم .

أما والتوحيد غير مستطاع ، حيث تبقى المعاهد الدينية في وضعها الخاص من حياة الدولة ، فالطبيعي أن يكون وزير المعارف وحده هو الذي يضع النظم الكفيلة بتهيئة معلم اللغة العربية في المدارس التابعة له والمسئول هو عنها ،

وَألا يكون للمعاهد الدينية أى حق فى التداخل فى شؤنه ، وألا يكون لخرى يحيا
أية أهلية خاصة للتعليم فى مدارس الوزارة .

والواقع أن وزارة المعارف تعانى فى الوقت الحاضر متاعب فى تعليم اللغة
العربية شعر بها وزراء المعارف المتعاقبون جميعا ، وحاولوا وسيظلون يحاولون
إلى زمن غير قريب التغلب عليها . هذا مع أن معلم اللغة العربية نشأ فى مدرسة
دار العلوم تحت سلطان وزارة المعارف وإشرافها الدقيق منذ سبعين عاما .

وسبب هذه المتاعب يرجع إلى أن أبناء دار العلوم يؤخذون دائما من
الأزهر ، بحجة أن معلم اللغة العربية يجب أن ينشأ فى ظلال الدين الإسلامى
الذى اختصت المعاهد الدينية بتعليمه ، وقد أنشئت تجهيزية دار العلوم للتغلب
على هذه المتاعب ، فحوربت حربا انتهت بإلغائها تنفيذا لقانون سنة ١٩٣٠ .
ولما أرادت وزارة المعارف إنشاء قسم إعدادى لدار العلوم حورب إنشاء هذا
القسم ، واضطرت وزارة المعارف على أسف منها إلى العدول عنه .

والواقع أن معلم اللغة العربية يجب أن يهيا فى ظلال القرآن على أنه الحجة
التيب فى اللغة ، والمثل الأعلى فى البلاغة ، فأما ماسوى ذلك من علوم الدين
فحسب معلم اللغة العربية منها أن يأخذ بقسط كاف من العلوم التى تمكنه من
فهم القواعد الدينية العامة والثقافة الإسلامية .

لكن معلم اللغة العربية بحاجة مع فهمه القرآن وبلاغته ، ومع إحاطته
بقواعد اللغة نحوا وصرفا وبلاغته ، إلى تتبع اللغة فى تطورها على اختلاف
العصور . بحاجة إلى معرفة الأسباب الحقيقية التى أدت إلى ازدهارها حيناً وإلى
جمودها أحيانا . بحاجة إلى معرفة تاريخ الأدب العربى حديثه وقديمه . بحاجة
إلى مقارنة هذا الأدب بأداب اللغات الأخرى وإلى معرفة تأثير هذا الأدب بتلك
الأداب وأثره فيها فى العصور المختلفة . بحاجة إلى إدراك صلة اللغة بالعلوم
المختلفة جميعا . فاللغة الحية لا تكون حية إلا بمقدار وفائها بحاجات هذه العلوم

كوفاتها بحاجات الدين وبحوثه ، وبمقدار وفائها بهذه الحاجات في أحدث طور وصل إليه العلم وأحدث صورة وصل إليها التفكير الأدبي والفلسفي .



لم يكن الناس يشعرون منذ سنوات ماضية بحاجة معلم العربية إلى هذا كله ؛ لأن الحياة الجامعية لم تكن قد نشأت ، أو لأنها كانت في بدء نشأتها ، ولأن المدارس العليا كانت تدرس فيها أكثر العلوم باللغات الأجنبية ، فكان إتقان اللغة العربية معتبرا أمرا مقصودا لذاته ، يحمد من يبالغه ، ولا يلام من يقصر فيه ، فلما بدأت الحياة الجامعية تزوي ثمرها ، ولما بدأت الدراسات باللغة العربية تستقر في كليات الجامعة المختلفة ، ثم لما بدأ الشعور بضرورة تمييز العلم كله يقوى في النفوس ، بدأ رجال وزارة المعارف وغير رجال وزارة المعارف يدركون أن اللغة ليست غاية لذاتها ، وأن التفوق فيها ليس كإلّا يستحق صاحبه الحمد ولا يلام من لا يبلغه ، وإنما اللغة أداة لنقل العلم وألوان الفكر ووسيلة للتفاهم ، فالتقصير في إتقانها موجب للوم صار بالحياة الفكرية في البلاد غاية الضرر .

من هنا تكشف حقيقة تعتبر بديهية في غير مصر ، ولكن الظروف التي سبقت إنشاء الجامعة عندنا أحاطتها بكثير من الإبهام . هذه الحقيقة هي أن مدارس الدولة الابتدائية والثانوية تهيم أبناءها للالتحاق بالجامعات المدنية . وطبعي لذلك أن يعد تعليم اللغة العربية في مدارس الدولة إلى هذه الحياة الجامعية إعداداً تتم به الدورة التعليمية ، وأن يكون معلم اللغة العربية قد هيء للقيام بهذه المهمة على خير وجه . وقد هيء لها من أول تنشئته ، شأنه في ذلك شأن غيره من معلمي المواد الأخرى . ولعل ما لوحظ من ضعف طلاب الجامعة في اللغة العربية يرجع إلى أن هذه الشرائط لم تتحقق وإلى أن تعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية غير متصل بالتعليم الجامعي الاتصال

الواجب ، وهذا ماقرره الممتحزون في كليات الجامعة المختلفة إذ رأوا ضعف الطلاب في التعبير باللغة العربية تعبيراً صحيحاً .

فكرت وزارة المعارف في السنوات الأخيرة في التماس الوسيلة إلى علاج هذه الحال ، واتجهت في تفكيرها في هذا العلاج نحو الكتب التي تدرس وتقرأ في المدارس الابتدائية والثانوية فتألفت في يونيو سنة ١٩٣٥ لجنة من بعض رجال وزارة المعارف والجامعة لوضع كتب للقواعد والمطالعة للمدارس الثانوية ، كما تألفت لجنة أخرى لمراجعة هذه الكتب . وفي سنة ١٩٣٧ عدل تأليف اللجنتين . وفي أغسطس سنة ١٩٣٧ صدر قرار بتشكيل لجنة من بعض رجال وزارة المعارف لوضع كتب الدين وفق المنهج الحديث ، كما تألفت لجنة من بعض رجال وزارة المعارف والجامعة لوضع كتب في تاريخ الأدب العربي والمحفوظات ولجنة أخرى من رجال الجامعة لوضع كتاب في تاريخ الأدب للسنة التوجيهية . هذا فيما يتعلق بالمطالعة الأصلية ، أما المطالعة الإضافية أو المطالعة الخاصة فكانت إلى سنة ١٩٣٥ مقصورة على مراجعة التلاميذ كتباً مختلفة يستعبرونها من المكتبات . وهي الكتب التي كانت تقتنيها الوزارة من مؤلفات المؤلفين المختلفين سواء في مصر أو في غيرها من الأقطار العربية . وأعلى كتاب يوزع على التلاميذ لقراءته في البيت ، على أن التلاميذ لم يكونوا يعنون عناية كبيرة بهذه المطالعات ؛ لأنهم لم يكونوا يقومون بهامع أساتذتهم من ناحية ؛ ولأنهم لم يكونوا مسئولين عنها في امتحان ولا في غير امتحان من ناحية أخرى .

وفي سنة ١٩٣٥ فكرت الوزارة في تزويد التلاميذ في أثناء العطلة الصيفية بكتب يقرءونها ، فافتتت مقادير كبيرة من كتب بعض المؤلفين المحدثين ووزعتها على التلاميذ .

لم تنجح هذه الوسائل للعلاج فأمعنت وزارة المعارف في السنة الأخيرة التفكير في الأمر وذهبت تلتمس أسباب الضعف تريد أن تشخصها ؛ ليكون

العلاج ناجعا منتجا . وآخر نظرية لوزارة المعارف في هذه المسألة وفي غيرها من مسائل التعليم جميعا أن المعلم هو مصدر كل قوة وكل ضعف في التعليم . فالمعلم الصالح يصلح البرنامج المعوج ويمهد السبيل أمام الوزارة بقوة حجته لتلافي أسباب الفساد . هو يشعر في حبه لمهنته بضرورة العمل لأن تبلغ الكمال فهو يسعى يهيئ الوسائل إلى بلوغها هذا الكمال ؛ لهذا وجهت الوزارة همها إلى معاهد إعداد المعلمين ومن بينها دار العلوم تريد إصلاحها ، وذلك بعد أن درست أسباب الضعف وعلل المتاعب التي توجعها في هذا الطور الجديد من أطوار حياة مصر الذي يختلف اختلافا كبيرا عن الطور الذي سبقه .



وقد تبينت الوزارة أن من أسباب الضعف في تعليم اللغة العربية قصر اختيار الطلاب لدار العلوم من الحاصلين على الشهادة الثانوية للأزهر . ليس يرجع هذا الضعف إلى قلة في الرغبة من جانب هؤلاء الطلاب ، ولا إلى ضعف في حرصهم على أن يباغوا الكمال ، كلا ، بل هم يجهدون أنفسهم ويبدلون كل ما يستطيعون بذله للقيام بواجبهم كطلاب ومعلمين . وإن كثيرين منهم ليباغون في أحيان كثيرة مقاما محمودا . لكن تأثرهم بطرائق التدريس في الأزهر وبالكتب التي تدرس فيه وبغير ذلك من العوامل التي تسوديته . كل ذلك يضطر هؤلاء الطلاب إلى بذل جهد عنيف لتفهم النظريات الحديثة في التربية وتطبيقها ، كما أن اختيارهم ذلك يجعل الصلة بينهم وبين التعليم الجامعي مقطوعة في أول الأمر ، ويزيد لذلك في مشقتهم . ثم إن اختيار معلمي اللغة العربية من طائفة واختيار معلمي سائر العلوم من طائفة أخرى كان سببا لمتاعب لم يقف أثرها عند التنافس الطائفي ، بل تعداه إلى أن الطرائق التي يسير عليها هؤلاء والطرائق التي يسير عليها أولئك تدفع إلى نفس التلميذ حيرة قد لا يعيها بعقله ، ولكنه يضطرب أمامها بنظرته ، فهو بين هذه الطريقة وتلك يسلك سبيله إلى الجامعة ، فإذا بلغها تعقدت

طرائقها أمامه وصار في حيرة حتى يتعبد الدراسات الجامعية، وقد يضيع عليه ذلك سنة أو أكثر من سنى الدراسة. وهذا في رأينا هو سبب السقوط الفاحش في السنوات الأولى من كليات الجامعة.

وقد لمست وزارة المعارف هذا الاضطراب بسبب اختلاف الطرائق في تنشئة الأطفال أنفسهم حين قارنت بين من ينشئون في رياض الأطفال وبين من ينشئون في التعليم الأولى. هؤلاء وأولئك إذا اجتمعوا في فرقة واحدة لم يستطع بعضهم أن يساير بعضا في اللغة العربية بنوع خاص. فأما أبناء رياض الأطفال الذين تعلموا على الطريقة المتبعة في مدارس البنات فيبدون ضعافا إلى جانب الذين يعلمون في المدارس الأولية. وأما بنات رياض الأطفال اللاتي يتلقين اللغة العربية على معلمة في مدارس البنات فيسرن في طريقتن ويتفوقن في امتحان الشهادة الابتدائية على البنين. ومرجع هذا وذلك من الأمر إلى اختلاف الطريقة في إعداد المعلم وفي إعداد المعلمة وفي الطريقة التي يتبعها كل منهما في التدريس كنتيجة لهذا الإعداد.

أما الشأن ما تقدم فليس ثمة شبهة في أن إعداد المعلمين لمدارس وزارة المعارف يجب أن يترك لوزارة المعارف لا يشاركها فيه أحد من بداية الأمر إلى نهايته، ويجب أن يعدل التشريع في قوانين الأزهر وفي غير قوانين الأزهر، يحقق هذه الغاية.



وهنا شرح معالى الوزير طريقة تنفيذ فكرته فقال :

«وتطبيقا لهذه القاعدة التي تتفق وحدها مع المنطق ومع الدستور ومع مسئولية وزير المعارف البرلمانية، والتي أخذت بها الأمم المتحضرة كلها. لأنها تعتبرها من البديهيات التي لا تقبل جدلا — يجب أن تنظم العلاقة بين المعاهد الدينية ووزارة المعارف في هذه الحدود. فأما إن حرصت المعاهد على استقلالها مع

بقاء نظامها الحالي فيجب أن تضم كلية اللغة العربية وكلية الشريعة إلى وزارة المعارف عودا إلى النظام الطبيعي الذي جعل مدرسة القضاء الشرعي ومدرسة دار العلوم تحت سلطان وزارة المعارف وإشرافها . وقد تكون هذه خطوة صالحة لتوحيد التعليم إذا أخذ معلمو اللغة العربية في المعاهد الدينية بمن تعدهم وزارة المعارف لتعليم هذه اللغة .

وأما إذا رثى بقاء المعاهد الدينية بصورتها الحاضرة بعيدة كلها عن وزارة المعارف ، فإن هذه المعاهد يجب أن تكتفى في أمر إعداد معلم اللغة العربية بإعداد معلميها هي ، ويجب أن تكون وزارة المعارف حرة تمام الحرية في إعداد معلم اللغة العربية لمدارسها ، وفي اختيار من يصلح لهذا الإعداد . شأنها في ذلك شأنها في إعداد المدرسين لسائر المواد التي تعلم في مدارسها .

ثم ختم معاليه هذه المذكرة قائلا :

« هذه فكرة إجمالية عن تهيئة معلم اللغة العربية وما يجب أن تكون عليه في مصر . ووزارة المعارف مقتنعة بأن اللجنة الموقرة ستوافقها عليها تمام الموافقة ، وأنها لذلك ستقترح إلغاء كل ما يخالفها في القوانين الحاضرة ، وسنبدي هذا الرأي لمجلس الوزراء تحقيقا لمصلحة الدولة ، وحرصا على حياة اللغة نفسها . »

هل جني الشعر الجاهلي

على الأدب العربي ؟

للمؤننذ على النجري ناصف

المقتش بالمعارف

قرأ الناس في مجلة الثقافة بضع مقالات للعالم الأديب الأستاذ أحمد أمين ، بعنوان « جناية الشعر الجاهلي على الأدب العربي » . وقد حمل الأستاذ في هذه المقالات حملة شعواء قاسية على الشعر الجاهلي والمحسنى الظن به ، ودعا في غير تحرز ولا هوادة إلى نبذ كل أثر من آثاره قد يكون عالقا بأدبنا الحاضر . وهو يرى أن السكوت عن هذا سكوت عن خطأ قديم ، وقع السلف فيه ، ولم يسلم الخلف منه جيلا بعد جيل . بل هو يرى هذا السكوت إذعانا لأسر مهين ، واحتفاظا بقيود ثقال ، ألغت شخصيتنا الأدبية ، ومنعتنا أن تفكر بعقولنا ، ونمير عن عواطفنا ووجداناتنا ، ونتحدث عن مشاكلنا ، وعن العصر الذي نعيش فيه والبيئة التي تحيط بنا ؛ فظل أدبنا على العهد به قبل النهضة الحاضرة — أقوالا مرددة ، وصورا معادة مكرورة .

وليس يعنيني في هذا المقام أن أصف الدهشة التي شملت الناس ، والعجب الذي تولاهم حين قرءوا هذه المقالات ، واطلعوا على ما فيها من الآراء والأفكار . وليس يعنيني كذلك أن أبين سبب هذه الدهشة وذلك العجب : أهو شدة الخلاف بين مارأى الناس في هذه المقالات ، وما اعتادوا أن يروا

في سائر آثار الأستاذ : من أصالة الرأي ، والتوفيق في البحث ، والاعتدال في العرض والتعقيب ، أم هو شيء آخر يخالف ذلك كله ، أو يضاف إليه ؟ وإنما الذي يعينني أن أتناول هذه الآراء بالنقد ، وأن أرد كل وجه من أوجه الخلاف إلى أصله الذي أراه له أصلا .

وهذا لا يعني بالبداهة أنني أقدم الأدب العربي ، وأبرئه من كل مأخذ ، وأزعه أصحابه عن المواخذة ، كما يذكر الأستاذ عن ناقديه في إحدى مقالاته ؛ فإني لأعلم أن هذا الأدب ليس وحيا منزلا ، وأن أصحابه ليسوا أنبياء معصومين . كلا ، ولا ملائكة مقربين . وإنما معناه أن آراء الأستاذ في هذا الموضوع غير مسئلة ولا متفق عليها .

وأول مانقذ عنده مع الأستاذ فيما ذهب إليه من رأي — هو جنائية الشعر الجاهلي على الأدب العربي . فما تكون هذه الجنائية ؟ وما مبلغ اتهامه بها من الحق والإنصاف .

هذه الجنائية كما يراها الأستاذ — هي أن الشعر الجاهلي طغى على الأدب العربي في جميع عصوره ، فصبغه بصبغته ، وخلع عليه من سمته ؛ فإذا هو عصرى في ظاهره ، جاهلي في حقيقة أمره . وعندى أن الأستاذ لم يتحفظ في عرض هذه الفكرة ، ولم يحدد معناه منها ؛ فإذا هي فضفاضة مرسلة ، فيها من الإسراف والمبالغة ، وفيها من الشيوع والانطلاق . فالأدب العربي قد تأثر بالشعر الجاهلي في شتى العصور ، ما في ذلك شك ولا جدال . لكن هذا التأثير كان طبعيا ، وكان يختلف قوة وضعفا بحسب الظروف التي لا بدته ، والأحداث التي تعرض لها . ففي صدر الإسلام كان الشعر جاهليا في جملة ، لم يطرأ عليه من ظواهر التغيير إلا القليل ؛ لقرب عهد الناس بالجاهلية ، وبقاء الحياة العامة على العهد بها في الكثير من مناحيها ، ولا سيما حياة الكافة وسكان القاصية ومن يليهم . أما الثمر فكان حظه من التغيير أوفر ، وتأثره بالإسلام أوضح ؛ أن كان كتاب الله

نُرا لاشعرا . وحديث رسوله ﷺ أشبه الكلام بكلام الله ، بلاغة منطق ، وروعة بيان .

وفي العصر الأموي انبسطت رقعة الدولة ، وثبتت أصولها ، وعز سلطانها ، وفشا فيها الغنى . وتفرق الناس في أقطار الأرض ؛ فرأوا حضارات لم يروها ، واطلعوا على عادات وأساليب لاعهد لهم بها ، وخالطوا أجناسا شتى ، فأخذوا عنهم ما أخذوا ، ورفضوا ما رفضوا ، مع الاعتزاز بالعصية العربية ، والاحتفاظ بخصائص العرب الراسخة ، ومزاياها المتوارثة ، فكان هذا العصر حقا عصر التهيؤ للانتقال من طور إلى طور ، عبرت فيه الدولة من طور البداوة أو شبيه بها ، إلى طور الحضارة المؤتلة والملك العريض . وكان الأدب على مثال الحياة الاجتماعية في ذلك ، كان حدا وسطا بين طرفي القديم والحديث ، أو مجازا عبر عليه الأدب العربي من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة ، كما قال أستاذنا الإسكندري (رحمه الله) عن شعر بشار بن برد .

وفي العصر العباسي بذخت الحضارة ، واستبحر العمران ، وازدهرت الفلسفة ، وأينعت العلوم والفنون . واعتمد الخلفاء على الأعاجم في توطيد سلطانهم وتدبير ملكهم ، والقيام على الصغير والكبير من أمورهم ، فاشتدت صولتهم وعظم خطرهم ، وما زال يعظم حتى صاروا آخر الأمر أصحاب الحل والعقد ، وأصبح الخليفة ، لاشأن له ولاسلطان ، وأصبح بقاءه في الخلافة رهينا بإرادة المتغلبين إن شاءوا عزلوه ، وإن شاءوا أبقوه . فتمازجت العرب والعجم ، ووهنت العصية العربية ، وتمزقت الدولة مزقا شتى تكونت منها دويلات متنافسة متقاطعة ، لا تكاد تهدأ الحرب بينها أو تنقطع ، وانقرضت أجيال وخلفتها أجيال ، فتبدلت الحال غير الحال . وتغيرت عادات بعادات ، وحلت أساليب في الحياة محل أساليب ، فتحول الأدب أيما تحول ، وشمله التغيير من كل جانب ، ولم يبق فيه من آثار الشعر الجاهلي إلا بمقدار ما بقي في القوم من آثار العروية الأولى ، وسيأتى بيان ذلك في شيء من الإيضاح والتحديد .

وفي عصر الجمود والتقهقر ركبت الحياة الأدبية أو كادت، وانصرف الأدباء عن الابتكار والتجديد، إلى أساليب من الصناعة الفارغة، والزخارف اللفظية التافهة، فلم يكن في أدبهم من صراحة التفكير العميق، ولا جهد التغلغل والاستيعاب، ولم يكن فيه من سراوة الطبع والسميح والخطر المطواع، ولكن كان فيه من عبث الخليلين، وتهافت المقلدين.

ولما جاء عصر النهضة تلفت الأدباء حولهم يبحثون عن مثال يحتذونه، وفيض يستمدون منه، فلم يجدوا مثلاً أعلى، ولا فيضاً أغزر مدداً، وأعذب ورداً من الأدب القديم، فأقبلوا عليه ينهلون منه، ويأخذون إخذ أصحابه في التفكير وطرائق التعبير، ويمهدون للناس سبيله بالدعاية له، وإحياء مصادره، ونقى الشوائب عنه. وأنجح الله مساعهم، فحى الأدب القديم، ولاقى ما يستحق من حفاوة وإقبال، فاصطبغ به أدب النهضة في مستهل أمره، ولا يزال متأثراً به إلى اليوم. وأعتقد أن ستبقى الصلة بينهما ممدودة، مهما تمتد به الأيام، ويتوارد عليه من أسباب الخلاف، فكل فرع إلى أصله ينزع، ولو في المشابهة العامة، والخصائص النوعية.

يتضح من هذا البيان أن الأدب العربي في عصوره المختلفة كان يساير حياة الناس، ويتأثر بما يقع فيها من أحداث، وما تمر به من أطوار وتقلبات، وأنه كان مع ذلك موصول الأسباب بالشعر الجاهلي في جميع العصور، وإن اختلفت الصلة بينهما بحسب الظروف والملابسات. وما كان الأدب وهو يجري على هذا السنن حيال الشعر الجاهلي — بدعا في الطبيعة، ولا شاذاً من شواذها، ولكنه كان يجري على نمط مألوف، يقتضيه النسلسل والنشعب، وأحسب أنه على اتفاق مع قانون الوراثة في الأحياء. فلا ندرى إذا كيف يسمى ذلك جنائية، وكيف يستحق الشعر الجاهلي بسببها غضب الأستاذ ونقمة؟

على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالشعر الجاهلي ولا متصورة عليه.

فما من عصر إلا فيه شية مما قبله ، وله أثر فيما بعده . ذلك لأن لكل عصر نتاجه الذي يحيا فيه ، وتمتد به الحياة إلى الذي يليه ، على تفاوت في مدى العمر ومبلغ الحياة . وقد يكون في بعض الأحيان إنسانيا خالدا ، يرتفع عن القيود والحدود ، فإذا كانت هذه جناية فهي من آداب العصور السالفة عامة ، على آداب العصور الخالفة عامة كذلك ، وإذا هي جناية مرزعة التبعة ، تشترك فيها الآداب في جميع العصور . فما قصرها إذا على العصر الجاهلي ؟ ألا أنه كان أشد العصور تأثيرا ، وأوفرها من هذه (الجناية) نصيبا ؟ إن كان ذلك فدليل الحيوية وشدة الأسر . وتلك إذا مزية تذكر له ، ويحمد بها ، وليست منقصة تغض منه ، ويتمم لأجلها بالجناية .

إنا لنبخس هذا الشعر فضله ، ونزرى بقيمته الفنية الخالدة ، إذا كان كل ما نذكر عنه في هذا المقام أنه برىء من تهمة الجناية التي ألصقت به إصاقا ، من قبيل تسمية الأشياء بغير أسمائها ، ووصفها بضد ما تستحق من صفات ، ونحس في قرارة أنفسنا أن واجب الإنصاف وعرفان الجميل يقتضينا في غير هوادة أن نشيد بجزيل عائدته وجميل أثره في الأدب وتاريخه ، واللغة وما يتصل بها ويتفرع عنها من العلوم والفنون . فالشعر الجاهلي قد حفظ لنا صورا فنية خالدة ، تمثل بيئة الجاهلية وما يضطرب فيها من أحياء ، ويترامى من مشاهد الطبيعة وأفاعيل الإنسان ، وتمثل حياة الجاهلية وما كانت تجيش به من عواطف ووجدانات ، وتخضع له من تقاليد وعرف ، ويشيع فيها من عادات ، ويقع من أحداث ، ثم هو قد أمد اللغة بثروة ضخمة من المفردات والتراكيب المختلفة تجول في شتى مطالب التعبير ، وترجم عن ألوان كثيرة من المعاني . وإليه اتجه العلماء وواضعو العلوم اللسانية يستنبطون أصولها ، ويؤثلون قواعدها ويلتمسون لها الشواهد ، ويصححون الأخطاء ، ويستوضحون المستبهم ،

ويحلون المشكل ، فمر قد أدى رسالته في خدمة اللغة والأدب وما يتصل بهما
كأحسن ما يؤيدها الشعر ، وعلى وجه لا تكاد نعرف له مثيلا .

أما لو أن الشعراء والأدباء الذين خلفوا شعراء الجاهلية عصر بعدهم —
نظروا إلى الشعر الجاهلي كما ينظر الأستاذ أحمد أمين إليه ، فأغفلوا أمره .
وقطعوا صلته بهم ، لاستغلق أمره على الخالفين ، وصار في الأذواق بعد حين
كلاما مرذولا ، وفنا مستكرها ، لا يستسيغه إلا خواص الخواص من المنقطعين
لدراسة الآثار البالية ، والتنقيب عن العاديات البائدة . لكنهم أبرأوا الحسن الحظ
إلا أن يمحضوا على سننهم القويم ، فإذا الأدب في جميع العصور امتداد للأدب
الجاهلي ، وتفرع منه ، وزبادة عليه ، رعاية لمقتضيات الزمن . ومسايرة له في
أطواره ، وحفاظا على الأصول الأولى أن تنقطع الصلة بها مع الأيام ، فيتناكر
الماضي والحاضر ، ولا يتفاهم الأول والآخر .

ويرى الأستاذ الفاضل أن التغيرات التي طرأت على الشعر في العصر العباسي
لا تعد تغيرات ذات بال ؛ لأنها لم تصل إلى الصميم ، بل وقفت عند الحواشي
والأطراف ، فلم تمس الوزن والقافية ، ولم تتناول الحياة الاجتماعية بالوصف
المنسقيض والتحليل الدقيق . وهو يعزو هذا القصور فيه إلى طغيان الشعر الجاهلي
عليه ، واستبداده به ، يوجه وجهته ، ويعلى عليه إرادته .

ونحن إذ نرجع إلى الشعر العباسي فنبتليه من هذه الناحية — نراه قد أوفى
على الغاية المأمولة ، وأدى الرسالة على النحو الذي يريد الأستاذ ، فاستحدث
المستطيل والممتد والموشحات في الأوزان ، وكثر النظم من البحور التي لم
تستكثر العرب منها ، كالمضارع ، والمجثث ، والمتدارك ، واستحدث التسميط ،
والتخميس ، والازدواج في القافية وتغيرت الألفاظ والمعاني تغيرا كبيرا ، بما
دخل عليه من الرقة ، والعذوبة . والإطلاق ، والتقييد ، وما استجد من الأساليب
وطرق الأداء ، وشاع من الزخارف والتأنق وحسن الترتيب وإحكام الصنعة ،

وما اخترع من الإمخيلة والتشبيهات، والتزم من الاقتتان في إزجاء الخواطر وعرض الفكر. أما الموضوعات فالنغير فيها شامل مستفيض، تناول الحياة من كل ناحية، ودخل عليها من كل باب: نجد وهزل، وتقوى وزهد، وخلاعة ومجون، وشراب وندمان، ونساء وغلمان، وطرود وصيد، وسياسة وحكم، ودعاية وأحزاب، وفلسفة وحكمة، وديانة ومذاهب، وقوانين وأنظمة، وليل ونهار، وسما ونبجوم، وشمس وقر، وسحاب وأمطار، وأرض وأجواء، ومياه ورياض، وأزهار وثمار، وطيور وحيوان، وآلات وأدوات، وسلم وحرب، وكروفر، وخرف وأمن، وغير هذا أو أشباهه مما يطول تعداده، وتشق الإحاطة به. ولولا مخافة الإطالة وأن كتب الأدب ودواوين الشعراء زاخرة بذلك كله لسقنا له الشواهد؛ ليستيقن الذين يرتابون، ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

ومن آثار هذا العصر الأدبية ما يتسع لبعض مشاكلنا الحاضرة، ولا يقصر عن الإلمام ببعض مخترعاتنا العتيقة، كأن أصحابها يوم قالوها في موضوعاتها كانوا ينظرون بالغيب إلى أشباه لها ونظائر، ستمخض عنها العصور المستقبلية. فهذه سياسة العالم اليوم، يتنازعها فريقان مختصمان: فريق يتنزه للغزو وبسط السلطان، كأنه لا يكثر في سبيل هذه الغاية لما يصيب العالم من خراب وتدمير. وفريق يجنح للسلم، ولكن في غير ذلة ولا استخذاء، ويتخذ الالهة للطوارئ الفاجئة في غير اعتداء ولا استفزاز. فهل من الشعراء المعاصرين من لخص هذه السياسة بأصدق وأجمع مما لخصها أبو الطيب المتنبي إذ يقول:

وكانا لم يرض فينا برب الدهر حتى أعاناه من أعاننا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

ومراد النفوس أصغر من أن تتعادي فيه، وأن تتعاني
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالخات، ولا يلاقى الهوانا

ولو أن الحياة تبقى لحي لعدونا أضلنا الشجعان

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جباناً
كل ما لم يكن من الصعب في الآز فس سهل فيها، إذا هو كانا
وهذا ابن هانيء الأندلسي يصف الخيل في إسراع عدوها، فكانت كما يصف
الطائرات في إسراع طيرانها قال :

وصواهل لا الهضب يوم مزارها هضب، ولا اليد الحزون حزون
عرفت بساعة سبقها، لا أنها علقت بها يوم الرهان عيون
وأجل علم البرق فيها أنها مرت بجانبه وهي ظنون
ويصف المتنبي سيرورة شعره، وشيوع روايته في الآفاق، فإذا هو كواصف
الإذاعة بالواحي، يتجاز العامر والغامر، وتفتح السهل والحزن، لا يعوقها
عائق، ولا تحدها حدود. قال :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب
إذا قلته لم يمتنع من وصرله جدار معلى، أو خباء مطب
وقال :

وعندي لك الشرد السائرا ت، لا يختصن من الأرض دارا
قواف إذا سرن عن مقولى وثن الجبال، وخضن البحارا
فلا ندرى بعد هذا ما مراد الأستاذ الكبير بقوله : إن التغيرات التي اعترت
الشعر العباسي لم تمس الوزن والقافية، ولم تتناول الموضوعات من الصميم ؟
أترأه يقول ما يقول عن تغيرات الموضوعات ؟ لأن الشعراء في أغلب الأحوال
لم ينشئوا في هذه الفنون الجديدة قصائد خاصة وإنما تصدوا لما تصدوا له منها
عرضا في قصائد المديح وغيره ؟ إن كان هذا هو السبب فليس فيه ما ينتقص
الشعر العباسي أو يعيبه، مادامت الغاية محققة، والمطلوب مدركا. وما جناية
الشعر الجاهلي في ذلك، وهو لا يعرف الكثير من موضوعات هذا الشعر،
ولا تعلقت بمعانيها خواطر شعرائه ؟ وإنما وجه الشعراء وجهة الكسب بالشعر،

وجعل المدح أول متصادمهم به — ظروف الحياة الاجتماعية نفسها ، ورضا أولى الجاه والثناء عن هذا الضرب من الزلفى ، وتشجيعهم على الافتتان فيه والاستكثار منه ، يبذل الرغائب وإسناء الجائزة .

ويعزو الأستاذ ما ينسب إلى الشعر الجاهلي من التحكن والغلبة إلى دعاية الرواة وأئمة اللغة من أمثال الأصمعي ، وأبي عمرو بن العلاء ، وابن الأعرابي . ولا خلاف أن هؤلاء السادة كانوا بحكم ثقافتهم ، ووحى رسالتهم التي تجردوا لأدائها — يتعصبون للشعر الجاهلي ، ولا يحتجون بغيره إلا ما كان من شعر المخضرمين والإسلاميين ولكن أنى لهم تأثير السحر في إعلاء كلمة الشعر الجاهلي وبسط نفوذه ، وكيف ظهرت على أيديهم المعجزة التي هيأت لهم اجتذاب الناس إلى طريقتهم ، وإغراء الشعراء بترسم خطأ سلفهم من الجاهليين في مذاهب الشعر وموضوعاته ؟ يقول الأستاذ : إنهم كانوا لدى الخلفاء أسمى مكانا وأنفذ رأيا ، وكانوا في الناس أقوى ناصرا وأكثر شيعة ، ثم إنهم مكرروا بالناس ، واستغلوا عواطفهم الدينية لبلوغ أربهم ، فوصلوا الشعر الجاهلي بتفسير القرآن الكريم ، وزعموا أنه يعين على تفهم مفرداته ، والكشف عن الممكنون من أسرارهم .

والمعروف أن مكانة الشعراء عند الخلفاء لم تكن أقل من مكانة الرواة ومن إليهم ، إن لم تكن في بعض الأحوال على الأقل — أرفع شأننا ، وأمنع جانبنا ، فإن الشعراء ينتجون وهؤلاء يجمعون ، أو هم في الواقع رواة منتجون ، ومنهم طائفة لا تقل عن الرواة المتقطعين غزارة رواية ، وتدقق حفظ ، وهم بعد لم يكون مالا يملك غيرهم من تأييد السلطان ، وحاجة الخصوم ، ونشر المزية ، على نمط يكفل لها الذبوع وقوة الأسر ، صنيع الصحف السيارة في العصر الحاضر أو أشد ، فلو نشبت حرب بين الفريقين لكان النصر فيها للشعراء لا محالة . وليس أدل على خلوص نية هؤلاء الأئمة ، وانتفاء الهوى عن مذهبهم في

الاجتماع من أنهم إلا قليلا جدا — لا يجوزون الاستشهاد بأحاديث رسول الله على إثبات اللغة والاحتجاج لقواعدها .

روى البغدادى عن أبى حيان فى شرح التسهيل قال : « قد أكثر المصنف من الاستدلال بما وقع فى الأحاديث على إثبات القواعد الكلية فى لسان العرب ومارأيت أحدا من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره . . . وإنما كان ذلك لأمرين : أحدهما أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى . فجدد قصة واحدة قد جرت فى زمانه ﷺ لم تقل بتلك الألفاظ جميعها نحو ما روى من قوله : زوجتكها بما معك من القرآن ، ملكتكها بما معك من القرآن . خذها بما معك من القرآن ، وغير ذلك من الألفاظ الواردة ، فدللم يقينا أنه ﷺ لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لا يجزم بأنه قال بعضها ؛ إذ يحتمل أنه قال لفظا مرادفا لهذه الألفاظ ، فأدت الرواة بالمراد ، ولم تأت بلفظه . . . الأمر الثانى أنه وقع اللحن كثيرا فيما روى من الحديث ؛ لأن كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ، ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو ؛ فوقع اللحن فى كلامهم وهم لا يعلمون ، ودخل فى كلامهم وروايتهم غير الفصحى من لسان العرب » (١) .

وكذلك لم يكن هؤلاء الأئمة خادعين ولا مضلين حين ربطوا الأدب الجاهلى بتفسير القرآن الكريم ، بل كانوا بررة أتقياء مخلصين ، يقرنون كلام العرب إلى كلام الله ، احتجا جاله ، وتبيننا لمكنون سره ، فيقيس الناس ما لا يعلمون من كلام العرب ، ويرون عن بينة كيف يكون الكلامان من نوع واحد ، وبلسان واحد ، ثم يختلفان فى المرتبة والمزية جدا ، وابتعد الفرق بينهما بعد ما بين المشرقين ، فيكون أحدهما معجزا غاية الإعجاز ، لا يستطيع الأنس والجن جميعا أن يأتوا بمثله ، ويكون الآخر ممكنا غاية الإمكان ، لا يستعصى على علاج الكفاة ومحاولة الأنداد . وفى هذا تثبيت لأفئدة المؤمنين ، وتمكين

لرسالة النبي وتأيد لحجته الخالدة على هدى وبصيرة .
على أن النواصي وأبا تمام اللذين يضربهما الأستاذ مثلاً للشعراء المجددين ،
الذين أودوا في سبيل التجديد ، بما يخس بعض الأئمة من جهدهم فيه ، وما
أثاروا حولهم من دعاية سوء بسبه — لانزى في أطوار حياتهما ، ولا في
المأثور من أخبارهما أن أحدهما أو كليهما حورف في حظه ، أو أقصى عن
منزلته بسبب التجديد .

فهذا أبو نواس على ماشاع من خلاعته واستهتاره ، بل فسوقه وإرفاقه .
قد اتصل ببعض الأمراء وعمال الولايات ، ومدح الرشيد ، وانقطع لمذح
الأمين ، ونال جوائزهم جميعا . وأقر أئمة اللغة والأدب بفضله ، وأثنوا على
عبقريته ونبوغته . قال أحمد بن يوسف الكاتب : « لقد وصف أبو نواس الخمر
وصفا لو سمعه الحسنان (الحسن البصري وابن سيرين) لهاجرا إليها ، واعتكفا
عليها » . وقال الجاحظ : « وأما بشار وأبو نواس فعتاهما واحد ، والعدة اثنان .
بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ، ولا تعب من عمل شعر ، وأبو
نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القاب بلا إذن » . وقال المبرد :
« ماتعاطى قول الشعر أحد من المحدثين أحذق من أبي نواس » . وروى الثعالبي :
« أجمع أهل العلم بالشعر على أن أجود بيت للمحدثين في المدح قول أبي نواس :
وكلت بالدهر عينا غير غافلة بجود كفك تأسو كل ماجرحا

وقال أبو عبيدة : « أبو نواس للمحدثين مثل امرئ القيس للتقدمين . . .
بل لقد كان بعض النساك يستنشد شعره ويعجب به . روى أن سفيان بن عيينة
قال لرجل من أهل البصرة : أنشدني لأبي نواسكم ، فأنشده :

ما هو إلا له سبب يبتدى منه وينشعب

فقال سفيان : آمنت بالذي خالقه . وعجب سفيان أيضا من قوله .

ياقرا أبصرت في مآتم يندب شجوا بين أتراب

يبكى فيلقى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب^(١)
واستشهد صاحب الكافية في باب المبتدأ والخبر بقوله :

غير مأسوف على زمن ينقضى بالهم والحزن^(٢)
ولم يكن أبو تمام بأقل حظا من صاحبه ، بل لقد أربى عليه وفاقه . اتصل
بالمعتصم ، وحظى عنده ، ومدح وزيره محمد بن الزيات ، والحسن بن وهب
وغيرهما ، ورحل إلى كبار العمال بمالكهم ، ومدحهم بالقصائد الخالدة ، فقربوه
منهم إلى حد الصداقة ، ورغبوا به عن التكسب بالشعر ، وولاه الحسن بن وهب
بريد المروصل ، فأقام به أقل من سنتين ، وتوفي^(٣) .

واستشهد صاحب الكافية في المبتدأ والخبر أيضا بقوله :
على مثلها من أربع وملاعب تذل مصونات الدموع السواكب^(٤)
واستشهد كذلك صاحب الكشف على تعدى الفعل أظلم في قوله تعالى :
« وإذا أظلم عليهم قاموا » — بقوله :

هما أظلما حالى ثمت أجليا ظلما ميعا عن وجه أمرد أشيب
ثم قال : وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية
فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه . ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه يدت
الحماسة فيقتنعون بذلك ؛ لو ثوقهم براويته وإتقانه^(٥) ؟
فأنت ترى أن ما قيل عن أبي نواس وأبي تمام ، مما يرويه الأستاذ عن بعض
الائمة ، ويتأول فيه أذى لها ، ومثلا من جنائيات الشعراء الجاهل على الشعر العربي ،

(١) أدب اللغة العربية في العصر العباسي ، ص ١٦١ - ١٦٣ ، وخزانة الأدب : ١ : ٣١٥

(٢) خزانة الأدب : ١ : ٣١٣

(٣) أدب اللغة العربية في العصر العباسي ، ص : ١٧٥

(٤) خزانة الأدب . ١ : ٣١٦

(٥) الكشف : ١ : ٣٥

أو من جنائات الجلود على التجديد — ترى كل ذلك كأنه لم يقل ، ولم يسمع الناس به . وإلا فآين أثره ، وآين موضع الشكاة منه ؟ وقد نال كلا الرجلين على ما أسلفنا — حظه المقسوم في الحياة ، ونال من أئمة اللغة وأساطين الأدب وأصحاب البجاه والسايطان غاية ما يستأهل من الثناء وحسن التقدير ، أداء لحق العبقرية والتبوغ ، كأفضل ما يؤديه الحر الكريم المنصف ، برغم ما جناه أبو نواس على الفضيلة والأخلاق ، بما كان يشيع من الفواحش ، ويحرض عليه من المآثم . والذين قالوا عن أبي تمام : إنه خرج على عمود الشعر ، حين رأوه يحيد عن المألوف في بعض مذاهبه الشعرية — لم يصدروا في هذا عن انتقاص انفضله ، أو غرض من شأنه ، وإنما كانوا يصدرون عن رأيهم في الشعر ، وفهمهم لطريقة تعبيره عن خواطر الشعراء . فهم كانوا يرون أن الشعر لا شأن له بالفاسقة ، ولا ينبغي للشاعر أن يتناول موضوعه على نمط الفيلسوف بل على نمطه المألوف ، القائم على الملاحظة الغربية ، والفكرة القريبة ، والعاطفة الرقيقة ، والإحساس المتيقظ ، والخيال السرى ؛ لئلا تعتاصر معانيه ، ويشيع سوء النأليف في تراكيبه . ولهذا قالوا : أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحرى ؛ إذ كان أكثر منهما التزاما لهذه الطريقة ، وأشد منهما انطباعا عليها ، واقدارا على الاقتنان فيها . وما نرى فيما قالوا تفضيلا للبحرئى على صاحبيه ، ولكن نرى فيه وضعا له ولهما بالموضعين اللذين يتفقان مع رأيهم في الشعر ، وفهمهم لرسالة الشاعر .

ونحن نعجب كيف يرى الأستاذ أن مجرد وصل الأدب الجاهلي بالنفسير ، وهو بعض ما جاء الإسلام به — كان كافيا لإغراء الناس بهذا الأدب ، واحتفالهم له ، وتهالكهم على دراسته ، وتقديس كل ما فيه من أمثال وقصص وأخبار ، ثم لا يكون الشعر الإسلامى نفسه أثيرا مقدما ، وهو قد نشأ في كنف الإسلام ، وترعرع على عينه ، وتأثر به تأثرا بايغا ، ومنه ما قيل دفاعا عن النبي ، وردا على منكرى رسالته ، وتشيعا لآل بيته الكريم ؟

وعندنا أن الشعر الجاهلي إنما فتن الناس به ؛ لأنه أدب الطبع الخالص ،
الجاري على سنن الفطر البريئة من تكلف الصناعة ، واضح المذهب ، قريب
المتناول ؛ صادق التعبير ، مرسل الصياغة . فهو أقرب إلى الطبع صلة ، وأخف
على النفس مشرنة ، وألطف إليها مدخلا ، وأجل منها موقعا . ولبعض هذه
الأسباب يلقي الأدب الخفيف من الارتياح والإقبال مالا يلاقى مثله الأدب
العويص ، ويخف الناس للتمثيل والخيالة ، ويتناقلون عن محاضرات العلوم
والفنون . ثم إن قدامى المؤلفين في الأدب قدروا الأدب الجاهلي حق قدره ،
فأطروه إطراء جميلا ، ولم يغفلوا الحديث عنه وإيراد الأمثلة منه .

قال الجاحظ : « ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ، ولا آتق ، ولا
ألد في الأسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ؛ ولا أفتق للسان ، ولا أجود
تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء
البلغاء » (١) . وقال : « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام .
وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجلة فكر ولا استعانة . وإنما هو أن
يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أوحين أن يمتح على رأس
بئر ، أو يحد ويبيعير ، أو عند المقارعة والمنازلة ، أو عند صراع ، أو في حرب ،
فأهو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ،
وتأتيه المعاني أرسالا ، وتثال عليه الألفاظ أنثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ،
ولا يدرسه أحدا من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطويعين لا يتكفون .
وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ونحن
(أبقاك الله) إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن
المشور والأسجاع ، ومن المزدوج وما لا مزدوج ، فعنا العلم على أن ذلك لهم
شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذي

لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول في مثل ذلك إلا في اليسير» (١).

أما أيام الجاهلية فرجع الأمر في إعظام قدرها، والإعجاب برجالها، والازدياد لرواية أنبائها - إلى براعة القصاص في تفخيم أحداثها وبروعة التخيل وجهارة التهويل، وإلى حسن افتنانهم في تصوير الأبطال ووصف محامدهم من الشجاعة وبعد الهمة، والسخاء والتجدة، والوفاء بالعهد، وإيلاء الضيم، وحماية الذمار، وهلم جرا. يتخلل هذا وذاك حوار ممتع، وشعر أخاذ، كله خفة وظرف، وحكمة وأدب، ثم إن أيام الجاهلية كانت أقدم عهداً من أيام الإسلام، والنفس شيقة إلى البعيد، حريصة على تعرف أنبائه، والاحاطة بدخائله؛ لما فيه من الغرائب والأعاجيب، ولا كذلك القريب المألوف.

وسبب آخر: أن أيام الجاهلية إنما تنطوى على مفاخر خاصة، تفاضل بها القبائل، وترجح إحداها الأخرى في السيادة والمجد؛ إذ كانت القبيلة عندهم هي الوحدة التي ينسب إليها الفرد، وتتعاون لحيرها الجماعة؛ فرواية أيام الجاهلية رواية أخبار مجد تليد، وإحياء ذكرى سيادة ذاهبة، للتحلف فيها فخر، وله بها دالة واعتزاز، أما أيام الإسلام فالفضل فيها لأصحاب دين على أصحاب دين آخر، لا ذكر فيه للقبيلة، بل لا ذكر فيه للوطن والجنس، فالفخر بها شائع شامل، والمزية موزعة على التعميم.

يدعو الأستاذ بعد هذا في غير تحفظ ولا توقف إلى التحال من قيود الوزن والقافية كما وضعتها العرب في الجاهلية. وهي دعوة جريئة، والمراد بها مع ذلك غير مفهوم. فهل تراه يريد أن يتدع كل شاعر ما يشاء لشعره من الأوزان لا يرضى في ذلك قانوناً، ولا يرجع إلا إلى ذوقه وإرادته؟ أم هل تراه يبيح ذلك فريقاً بعينه من الشعراء، لا يشرّكهم فيه شريك، ولا يتناول إلى مجاراتهم

في ميدانه منازع؟ إن تكن الأولى فالنوضى لا يكاد يعرف معها للشعر نغم، أو تفهم لهم موسيقا، فيضعف تأثيره، ويضطرب رنينه، ولا يستقيم لغير صاحبه أن يقرأه قراءة موزونة، لأن الوزن كما لا يخفى - يقتضى تغييرات شتى في نطق بعض الكلمات بتسهيل المهموز وقطع الموصول، ومد المقصور، وقصر الممدود، وتسكين المتحرك، وصرف الممنوع من الصرف، ونحو ذلك. لأن العربية لغة شكل وإعراب. وهيئات أن يدرك الناس هذه التغيرات على وجهها، مأخوذين باتساق الأنغام، إلا إذا اعتادوا مرسيقا الوزن، وطال استماعهم لها، وتمرسهم بحرسها. وكيف يمكن من هذه الفوضى تمرس واعتياد. وزن تكن الأخرى فقد رجعنا إلى ما يسميه الأستاذ نوعا من السجن لا يليق بأمة راقية أن ترضى به أو تسكت عنه. ثم من هؤلاء الذين يستأثرون بهذا (الامتياز) من الشعراء؟ ومن الذى يختارهم؟ وكيف يكون اختيارهم؟ أتؤلف لذلك حكمة يوكل إليها حق المنح والحرمان. فلا ترد لها إرادة، ولا يخالف لها أمر؟ الحق أن المسألة كما أسلفنا غير مفهومة ولا محدودة.

ثم يقول الأستاذ: إن التزام القافية كما التزمها شعراء الجاهلية قد حرم الشعر العربى الملاحم والقصص الطويلة. ونحن نرى أن خلو الشعر العربى من الملاحم إنما يرجع إلى سبب آخر يتصل بطبيعة العقلية العربية والخيال العربى، لا بالقافية ونظامها الحاضر، ولو أن الشاعر العربى أحس حاجة إلى هذا النوع من القصيد، وتعلقت نفسه بنظمه لاحتال له، وذلل العقبات التى تعترض دونه، أيا كان نوعها. ثم إننا لانرى على الشعر العربى من بأس أن خلا من الملاحم، فلكل أدب طبيعته ومزاياه المستمدة من طبائع أهله وخصائصهم وهيئات أن يجتمع فى أمة واحدة خصائص الناس جميعا، فيجتمع فى أدب واحد خصائص الآداب كافة. أما أن القافية على نظام الحاضر حرمت القصص الطويلة الممتعة فغير مسلم، ولانرى أن الشاعر يعيا بهذه القصص مع التزام

القافية إلا إذا كان بكتينا قليل البضاعة ، فج الملكة . أما الشاعر المتمرس الفياض ، الطبع ، الوافر الذخيرة ، فلا .

وهذا شوقي (رحمه الله) وضع قصصه البازعة شعرا عربيا خالصا ، دون أن يشكو ضيقا ، أو يجد عتتا من القافية . فمن آنس من نفسه المقدرة فليقدم ، والسبيل أمامه ميسرة ، والمحاولة مجدية . ومن لم يجدها ففي النثر له متسع ، وليس بضائره ولا بضائر الأدب واللغة ألا يكون شاعرا .

إن الدعوة إلى نبذ القافية جملة دعوة سخيفة ، وليس لها سند من ذوق أو نظام ؛ لأنها تفضي إلى تعدد مقاطع الأبيات ، واضطراب النظم في تأليفها . وخلو الشعر منهما يحرمه سمة من أبرع سماته ، ويجعله أشبه بالمنثور ، وأجدر أن يتسمى باسمه ، ويضاف إلى جملة ، بل إنه يجعله مسخا شائها ، ولونا من القول مذبذبا ، لا إلى الشعر ولا إلى النثر ؛ فإن من طبيعة النثر الاسترسال والانطلاق ، وهذا مقيد بالوزن في صياغته ، مطلق من كل قيد في قوافيه ؛ كالشقة من الديباج أحكت رقعتها نسجا واتساقا ، وأغفلت طرتها ، فإذا هي ناسلة مفككة .

وينكر الأستاذ أن يقول الناس الشعر في الموضوعات التي قالت الجاهلية فيها ، مدحا ، ورثاء ، وهجاء . ولا نرى في ذلك موضعا للإنكار أو الزرابة ، فالمدح والرتاء من الموضوعات الانسانية العامة ، لا تختص بعصر دون عصر ، ولا بأمة دون أمة ، فاستحسان المحاسن ، واستقباح المقابح كلاهما طبيعة في الإنسان ، تدفعه إلى الإعجاب والإطراء ، أو الاشتماز والهجاء . والحزن على فقد الأعزة شعور غلاب يهيج الوفاء والمرحمة ، أو ألم الفوت والحرمان . وقد تترجمه العيون بكاء ، والألسنة رثاء . فلا على الشاعر أن يمدح ويرثي ويهجو ، وأن يقول في كل فن سبق إليه الأقدمون ، كلما جاشت نفسه بالقول فيه . فما التجديد أن تقول في الموضوع الجديد وكفى ، ولا الجمود أن تقول كذلك في

الموضوع القديم وكفى . إنما التجديد فيما تأتي به من المعاني المبتكرة، والتوليدات العجيبة، وماتقع عليه من الآفاق المجهولة، التي تزيد في ثروة الفكر الإنساني . والجود أن يلغى المرء عقله، ويعطل حسه، ويردد أفكار غيره، وإن كان الموضوع طريفاً . والأستاذ حين يطلب إلى الشعراء أن يمسكوا عن القول فيما قال الأقدمون فيه لجود أنهم سبقوا إليه — إنما يتحكم في فهمهم، ويملي عليهم إرادته، ويوجههم الوجهة التي يراها، وهو ما ينكره أشد إنكار، ويدعو بقوة إلى الخلاص منه .

يعني الأستاذ بعد هذا على الأدباء أن يستعملوا أمثال الجاهلية وكنائياتها، المنترعة من بيتها، مثل : أخذ الشيء برمته، وألقى حبله على غاربه، وليس في العير ولا في النغير، وعلى طرف الثمام، وأعق من ضب ونرى أن هذا إسراف في الرأي شديد، معناه قطع الصلة بين اللغة وأصلها الأول، والقضاء على كثير من التراكيب والتعابير الجامعة، تصطنع في ألوان من المعاني شتى، دون أن يكون في الإبقاء عليها غضاضة، أو في استعمالها مجانبية للصدق في التعبير، كما يذهب إليه الأستاذ، فكثير منها تنوسيت معانيه الأصلية، وأصبح يستعمل عند جمهرة المتكلمين في معانيه الحاضرة استعمال الحقائق العرفية . فالذي يسمع: أخذه برمته مثلاً، يفهم منها لأول خطوة أخذه جميعه، لا أنه يفهم معناها الأصلي أولاً، ثم معناها العرفي بعد ذلك، مثلها في هذا كمثل الكثير من الكلمات التي تصرف أدباء العصر الحاضر في استعمالاتها من مثل : منطقة الامتياز، وقطار البحر، وتفتيش الدائرة، وهلم جرا . فإن كان الأستاذ يحرم ما يريد تحريمه لأن لبعضه مدلولات لا يسيغها الذوق الحاضر، فقد أسلفنا أن بعض هذه المدلولات قد تنوسى أصلها، وأصبحت ألفاظاً تستعمل في المعاني الحاضرة استعمال الحقائق العرفية . والذوق الأدبي العام، وهو الحكومة الطبيعية في ذلك — زعيم بنق ما لا يسيغه من هذه التراكيب، حتى أحس منها نفورا، ولم يجد لها حقيقة بالبقاء والمداولة، فتموت بمرور الأيام، كما مات الكثير من

من أمثالها في شتى العصور .

فليهدأ الأستاذ بالا ، وليطمئن إلى أن الزمان فاعل فعله من الإماتة والبعث ،
والنغير والتحويل . أما الأمر باستعمال هذا ، والنهي عن استعمال ذاك ، فما
لا يجوز في الأدب إذا كان جائزا في لغة الشرائع والقوانين .

وإن كان يريد التحريم لأن مدلولات بعضها مسميات لا وجود لها في بيتنا ،
واستعمالها مع ذلك تقليد وإلغاء للشخصية ، فإن اللغة العربية كلها ليست من
وضعنا ، واستعمالنا إياها قائم على المحاكاة والتقليد . فما للأستاذ لا يدعو إلى
تغييرها برمتها ، واتخاذ لغة غير هامة وضعنا ؟ وإذا كنا نعلم أبناءنا أن (الشوفان)
من حاصلات الزراعة في جهة كذا ، و (الرنة) حيوان يعيش في جهة كذا ،
ونفق (سافنوتار) قائم في جهة كذا ، ونطلب إليهم أن يتحدثوا عنها بالغيب ،
واسنأ في هذا بدعا في خلق الله - فما للأستاذ لا يريد أن نعلمهم معنى الثمام ،
والضب ، والحزامي ، وموطنها بلاد العرب ، مهد العربية ، ومهبط الوحي ،
ومستقر الكعبة ، ومثوى قبر الرسول ﷺ ؟ وهل يعلم الأستاذ مصرياً واحداً
رأى كل ما في مصر من حيوان ونبات وأزهار وثمار ؟ وما رأيه في أدب
العميان ، الذين يتحدثون عما لا يبصرون ؟

ويشخص الأستاذ علاجاً لهذه الحال التي يضيق بها ، وينكر الإبقاء عليها
أشد الانكار - أن يناد الشدة وتلاميذ المدارس الثانوية عن دراسة الشعر
الجاهلي وما يشبهه من أشعار العصور الأخرى ، اكتفاء بشعر العصر الحاضر
وما يشبهه من أشعار العصور الأخرى كذلك .

وهو علاج عجيب ، بل بالغ في العجب ، معناه ضد جمهور المتعلمين عن
دراسة شطر كبير من الشعر العربي ؛ لأن الأدب كما لا يخفى - لا يدرس بعد
مرحلة التعليم الثانوي إلا للقليل جداً من الطلاب . ومعناه كذلك أن يصبح
الشعر العربي بعضه حلال وبعضه حرام ، وليس الحلال حلالاً لمزية فيه سوى
أنه ليس بجاهلي ولا يشبه الجاهلي ، وليس الحرام حراماً لمنقصة فيه سوى أنه

جاهلي أو كالجاهلي ، وذلك مقياس جائر ، ما أنزل الله به من سلطان .
 وما ندرى ماذا عسى أن يصنع الأستاذ بالذين يخالفون عن أمره ، مكابرة
 وعناد ، أو تولعا بالمحذور ، أو حبا في الاطلاع ؟ أتراه يتوسل إلى أولى الأمر
 أن يضعوا قانونا يحرم دراسة الشعر الجاهلي على غير أهله ، ويرصدوا الجزاء
 للعصاة المخالفين ، والدعاة المحرضين ؟ وهل تراه يعتقد أن هذا العلاج يؤتى
 النتيجة التي يرتجىها ؟ كيف وهو يقرر أن الشعر العربي في جميع عصوره مطبوع
 بطابع الشعر الجاهلي ، متأثر به تأثرا شديدا ؟ والنهضة الأدبية الحاضرة نفسها
 إنما قامت على ساقين من الأدب القديم . فليس بواجب إذا شيئا من الشعر على
 الصورة التي يريدها ، نقيا خالصا من شوائب الشعر الجاهلي .

الحق أن ليس هناك جناية جناها الشعر الجاهلي على الأدب العربي ، لكن
 هناك فضلا يراد غمطه ، وأثرا محمودا يراد طمسه ، هناك دعاية ظالمة . بل نزوة
 غالبة ، لها على بعض كتابنا سلطان قاهر ، ولهم بها ولوع شديد . وهي التي
 تغريهم بالنيل من ماضينا والازراء بحاضرنا ، والإعجاب بكل أجنبي عنا ،
 وتصويره للناس أمثلة عليا يجب احتذاؤها ، والجد في بلوغ شأوها ، كأننا
 دون الناس أمة مضيعة : ليس لها قديم تستند إليه ، ولا جديد تعتز به .

وإذا قيل لهم : بعض هذا ؛ فليس ضرره مقصورا على مقوماتنا ، ولكنه
 يمتد إلى النفوس ، فيوهن من الثقة بها ، ويصرف عن الاعتماد عليها ، إذا قيل
 لهم ذلك قالوا : جامدون . عيونهم في أقيمتهم ، ينظرون إلى ما وراءهم ، ولا يرون
 شيئا مما بين أيديهم . وتالله لأن يكون الناس حيال قديمهم كما يتخيل هؤلاء
 الدعاة خير ألف مرة من أن تكون عيونهم في أصداعهم ، لا ينظرون
 بها إلى ما خلفهم ولا إلى ما أمامهم وإنما ينظرون إلى ما عند غيرهم ، تحرفا عن
 الجادة ، وانقيادا لنوازع التقليد ، وتهالكا مع الشخصية المتداعية : لا تهاك
 تخاذلا وانحلالا . ولو شاء الله ما فعلوه .

على النجدي ناصف

مفتش المعارف بالأسكندرية

الحكمة لآل

لأستاذ محمد أحمد برانق

المدرس بالابراهيمية الثانوية

في كتب اللغة : هو وزير الملك : الذي يوازره أعباء الملك ، أي يحامله ، وليس من المؤازرة بمعنى المعاونة. ووزير فلان للأمير يزرله وزارة ، واستوزر استيزارا . واستوزره الأمير ، فتوزر له ، ووازره ، وحاله الوزارة بالكسر ويفتح . والجمع : أوزار ووزراء .

ولقب وزير بهذه المعنى ، مستحدث في الملة الإسلامية ، وإن كان قديما في اللغة . فإن ملوك العرب في اليمن والشام والحيرة كانوا يسمون من يوازرهم أعباء الملك « الراهن » ؛ لأنه مرتين بالتدوير . « والزعيم » لأنه زعيم بصواب الرأي . « والكافي » ؛ لأنه كاف للملك مهمات الأمور . « والكامل » ، لأن المفروض فيه أنه كامل الفضائل .

والملوك لا يستغنون عن الوزراء : إذا أرادوا الخير لرعيتهن ، فإنه « كما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح ، وأفره الخيل إلى السوط ، وأحد الشفار إلى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير » (١) . وفي كتاب كيلة ودمنة « لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان » .

وملوك بني أمية كان يعاونهم كبار الكتاب في عهدهم ، ولم يسموهم وزراء ؛

أنفة منهم، لأن الخليفة عظيم، فهو أعلى وأجل من أن يحتاج إلى الموازنة أو يحمل عنه أعباء الملك، أو هو لا يعترف بها رسمياً على الأقل. فلا يخاطب كبير كتابه بالوزير. وإن كان القرآن نزل فيه على لسان موسى عليه السلام: « واجعل لي وزيراً من أهلي: هرون أخى، أشدد به أزرى، وأشركه فى أمرى ».

فلما كانت دولة بنى العباس التى قام ملكها على سراع النابهين من الأعاجم لم ير خلفاؤها بأساً من أن يسموا كاتبهم وزيراً، ولذلك لم يعرف هذا اللقب قبل العباسيين، وأول من أذن به أبو العباس السفاح، أول خلفائهم. وأول من لقب به أبو سلة حفص بن سليمان الخلال، وجرى على ذلك الخلفاء من بعده، ولم يكن « الخلفاء والملوك تستوزر إلا الكامل من كتابها، والأمين العفيف من خاصتها، والناصح الصدوق من رجالها، ومن تأمنه على أسرارها وأموالها، وتثق بحزمه، وفضل رأيه، وصحة تدبيره فى أمورها » (١). هذا كلام المسعودى فى الصفات التى كان الخليفة يتوخاها فى اختيار وزيره، وإن من يتصف بها يكون حقيقاً بأن يوازر الملك أعباء الملك، ولكن تعرفها يكون مبنياً على اجتهاد الخليفة فى معرفة حاشيته وبطانته، وقد يصدق فى ذلك اجتهاده، فيغنيه وزيره ويسعده، وقد لا يصدق اجتهاده، فيكون الوزير المختار سبياً فى قلقه وتعبه، وإفساد رعيته عليه. « ومثل الملك الخير، والوزير السوء الذى يمنع الناس خيره، ولا يمكنهم من الدنو منه — كالماء الصافى فيه التمساح، فلا يستطيع المرء دخوله وإن كان سايحاً وإلى الماء محتاجاً » (٢).

ولأن الوزير كان قبل بنى العباس يسمى الكاتب، فإن أكثر الذين ألفوا عن الوزراء من المتقدمين، كانوا يؤلفون أيضاً عن الكتاب. ومن ألفوا عن

(١) التنبيه والإشراف ص ٢٩٤ .

(٢) المستطرف ج ١ .

الوزراء ، أو الوزراء والكتاب جميعا إلى عهد المسعودي : أبو عبد الله محمد ابن داود بن الجراح ، وأبو العباس أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار ، وأبو عبد الله محمد بن عبدوس الجمشياري وابن الماشطة الكاتب ، وأبو بكر محمد ابن يحيى الصولي الجليش ، وعلى بن الفتح المعروف بالمطوق (١).

والذي اطلعنا عليه من مؤلفات هؤلاء لم يزد على أنه جمع أخبارا معنعة غالبا ، وتكاد تكون خالية من الترتيب والتبويب والتسلسل والنقد والتحليل ، شأن مؤلفات المؤلفين في العلوم والفنون المختلفة في تلك العهود .

وهم جميعا متفقون على أن أبا سلمة الخلال أول من خلع عليه هذا اللقب في الدول الإسلامية .

وليس يعنينا أن يكون تلقيبه بالخلال نسبة إلى الخل ، أو أن يكون منسوبا إلى خلل السيف ، يعني جفوتها لأن العرب تسمى من يعملها الخلال . ولكن الذي يعنينا أنه مولى حارثي ، فهو ليس عريبا ، وإنما هو أعجمي ، صاهر بكر بن ماهان كاتب إبراهيم الامام . فلما حضرت الوفاة بكرا كتب إلى إبراهيم يخبره أنه استخلف حفص بن سليمان الخلال في الكتابة ، ويوصيه به خيرا ، وكان ذلك مبدأ اتصال الخلال بإبراهيم الامام ، ولعله أيضا أول اتصال له بشؤون السياسة الإسلامية في خراسان التي ذهب اليها فقبل القوم أمره ودفعوا إليه شيئا من أموالهم .

ظل الخلال كاتباً لإبراهيم الإمام حتى ظفر مروان بإبراهيم وقتله ، ولذا ذلك ظهرت نية أبي سلمة ، وكان هواه في الشيعة . فلقى رجلا من شيعة علي ، وناظرهم على نقل الأمر إلى ولد علي ، وأراد أن يعقد الأمر لواحد من ثلاثة هم : جعفر بن محمد ، وعبد الله بن حسن ، وعمر بن علي بن الحسين ، وكتب

إليهم كتباً، وبعث إليهم رسولا يحمل هذه الكتب، وأمره أن يذهب أول ما يذهب إلى جعفر، فإن قبل أن يحمل أمانة الخلافة، مزق كتابي عبدالله وعمر، ورجع إليه برد جعفر. وإن لم يقبل ذهب إلى عبدالله، فإن قبل رجوع إليه برده، ومزق كتاب عمر، وإن لم يقبل عرض الأمر على عمر، ثم وافاه برده.

فأما جعفر، فإنه أخذ كتاب أبي سلمة، وأحرقه بإسان السراج قبل أن يقرأه، وقال لرسوله: الجواب مارأيت، وتمثل بيت الكميّ بن زيد:

أيا مرقدا نارا لغيرك ضوءها ويا حاطبا في حبل غيرك تحطب

وأما عبدالله فإنه قبل مادعاه إليه أبوسلمة، فخره جعفر عائبة القبول، وأخبره أن أهل خراسان ليسوا بشيعة، وأن أباسلمة مخدوع فيهم، مغرور بما يراه من ظاهرهم، وأشار عليه ألا يقبل، فنازعه عبدالله الكلام حتى اجتراً على جعفر، وهو أسن منه، وقال له: والله ما يمنعك من ذلك إلا الحسد؛ فرد عليه جعفر، والله ما هو إلا نصح مني لك، ولقد كتب إلى أبوسلمة بمثل ما كتب به إليك، فلم يجد رسوله عندي ما وجد عندك، ولقد أحرق كتابه من قبل أن أقرأه.

وضع أبوسلمة بتصرفه هذا نفسه في مأزق حرج، فلا هو عباسي كما كان مع إبراهيم الإمام، ولا هو وجد من الشيعة من ينصره ويأخذ بيده، ولم يكن بعيد النظر، فإنه كان في أهل خراسان، وأهل خراسان لم يكن هوى جمهورهم مع الشيعة، فليسوا ناصريه جميعا إذا جهر بالدعوة العلوية، ولا سيما أن أمر بني العباس كان يزداد قوة يوما بعد يوم، وكان أتباعهم يطاردون مروان بن محمد، وكانت انتصاراتهم تتوالى، وهزائم مروان تتتابع.

علم إبراهيم الإمام أن لانجاة له من مروان، فكتب إلى أخيه أبي العباس

يوصيه : « بالقيام بالدولة ، والجد والحركة ، وألا يكون له بعده بالحيمه لبث ولا عرجة حتى يترجه إلى الكوفة ، فإن هذا الأمر صائر إليه لا محالة » . وأتخذ إليه الوصية مع أحد مواليه ، وأمره إن حدث به حدث من مروان في ليل أو نهار ، أن يركب أسرع سابق في السير ليبلغ أبا العباس وصيته .

ويدور لي أنه من أسباب نجاح الدعوة العباسية تبكير مروان بن محمد بالقضاء على إبراهيم الإمام ، فإنه نبه إلى ذلك أذهان القوم ، وحفرت وصيته همته ، وإنه بعد أن نفذت وصية إبراهيم إلى أبي العباس ، ونُعي إليه بالحيمه — أمر أبو العباس الرسول أن يستر الوصية ، وأن ينعي إبراهيم الإمام أخاه ، ثم قام أبو العباس ، وكشف أخاه أبا جعفر المنصور بالأمر كما كاشف غيره من أهل بيته ، ودعاهم إلى موازرتة ، وتوجه بهم مسرعاً إلى الكوفة ، وكان ينشر الدعوة لهم هناك أبو مسلم الخرساني .

وبينما كان أبو العباس سائراً في طريقه إلى الكوفة قابله عمه داود بن علي ، وسأله عن مسيره ، فأخبره الخبر ، فقال داود : يا أبا العباس — تثبت بالكوفة !! فروان شيخ بني أمية وزعيمهم في أهل الشام والجزيرة ، يطل على أهل العراق وابن هبيرة شيخ العرب ، وحلبة العرب بالعراق ، ولكن أبا العباس لم يأبه بقول عمه ، ولم ينثن عن عزمه ، وقال له : يا عماء — من أحب الحياة ذل ، وتمثل بقول الأعشى :

فما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها
فتأثر دواد من كلام أبي العباس ، والتفت إلى ابنه ، وكان يمسح به ، وقال له : أي بني ، صدق عمك ، ارجع بنا معه ، نحى أعزاء ، أو نمت كراما ، ثم عطفا ركبهما معه .

خرج إذن أبو العباس إلى الكوفة ، وخرج معه إخوته وأعمامه وبنو

أعمامه ، لموازرتة ، وفعلوا ذلك تنفيذ الوصية إبراهيم الإمام أخيه الذي حذرهم
المقام بالحيمة ، وأمرهم بالمسير إلى أبي سلة بالكوفة ، وأمر أهل بيته أن يسمعوا
خليفته الذي أوصى له ويطيعوا ، وكان أبو سلة على غير علم بهذا الأمر ، فهو
لا يعلم أن إبراهيم أوصى لأخيه العباس بالخلافة من بعده ، ولا يعلم أن أهل
بيت العباس يظاهرون السفاح في السعي إلى الخلافة ، ولا يعلم أنهم مرصون
بالخروج من الحيمة إلى الكوفة .

ولعله كان إذا علم أن القوم قادمون إليه ، وأن إبراهيم نصب أبا العباس
خليفة من بعده ، وأن أمرهم آخذ في الظهور بمعاونة أبي مسلم ، لعله كان إذا
علم ذلك كله يغير سياسته في إظهار تشيعه ، أو يغير سياسته مع أبي العباس
وظهيره أبي مسلم وأعوانه من أهل بيته ؛ ولذلك عند ما شارف القوم الكوفة ،
وعلم أبو سلة بمقدمهم أنكر عليهم قدومهم في وقت رآه غير مناسب ، وعلى
غير علم منه ، وقال : خاطروا بأنفسهم ، وعجلوا ، فليقيموا بقصر مقاتل «وهو
على مرحلتين من الكوفة» حتى ننظر في أمرنا .

نعلم مقام أبي سلة ومركزه السياسي في خراسان من أن العباسيين قدموا
إليه لينصرهم ، ومن أنه استطاع أن يظهر غضبه منهم ، وسخطه عليهم ، ومن
أنه أمر بحبسهم في دار نائية عن الكوفة حتى ينظر ؛ وأراد بذلك أن يؤخر
دخولهم الكوفة حتى يعود إليه الرسول الذي أرسله إلى العلويين الثلاثة ،
يطلب إلى أحد منهم أن يقبل الخلافة ، حتى إذا ظفر بذلك شغب على العباسيين ،
وهم في تلك الدار النائية في البرية ، فسجنهم أو قتلهم ، وأوردتهم مقهورين إلى الحيمة
حيث أتوا ؛ ولكنهم استوحشوا من المقام في تلك الدار ، وكتبوا إليه
يلتمسون منه أن يأذن لهم بدخول الكوفة ، لأنهم إن بقوا في ذلك المكان لم
يأمنوا على أنفسهم أن تغير عليهم جيوش الشام ، فتتال منهم ، وهم إذا دخلوها
يتحرزون بها . فأذن لهم على كره منه ، ولكنه أنزلهم في دار مولى من موالى

بنى هاشم، وكنتم أمرهم نحواً من شهرين، فلا القواد يعلمون، ولا الشيعة يعلمون، وولى هو الأمر « وفرق عماله على السهل والجبل، وصارت الدواوين بحضرته، والكتب تنفذ منه، وترد عليه »^(١).

وكانت فترة توليه الأمر فترة انتظار لها ما بعدها لم تطل أكثر من شهر، سئم أكثر الخراسانيين فيها أبا سلة، وبرموا به، وارتابوا في أمره، وتحدثوا في شأنه، وقالوا: يا أبا سلة، مالك خرجنا، ولا إليك دعونا، وما أنت لنا إمام، وبيننا هم في ذلك معه، إذ خرج أبو حميد الطوسي من العسكر إلى الكوفة، فلقى سابقاً أحد موالى إبراهيم الإمام، فسأله عن مولده، فقص عليه قصته، وأخبره أن مروان بن محمد له في الحبس، وكان قد أوصى بالخلافة لأخيه أبي العباس، وهو الآن بالكوفة هو وجماعة من عمومته وأهل بيته منذ شهرين.

عجب أبو حميد الطوسي من ذلك، وسأل عن الدار التي يقيمون فيها، وضرب موعداً بينه وبين صاحبه، على أن يلقاه في غد ليوصله إليهم؛ فأما أبو حميد فإنه أخبر جماعة من قواد خراسان في عساكر أبي سلة بالأمر، وأما صاحبه، فإنه استأذن أبا العباس في أن يحمل إليه أبا حميد، فأذن له، فلما كان الموعد المضروب من اليوم التالي تلاقى الرجلان، ومضيا حتى دخلا على أبي العباس في محبسه هو وأهل بيته، ثم سأل أبو حميد: أيكم ابن الحارثية؟ فأشاروا عليه، فسلم عليه بالخلافة، وقبل يديه ورجليه، وبايعه، ثم سار إليه جماعة من وجوه العسكر في أصحابهم، يحملون سلاحهم وبايعوه^(٢).

كان أبو سلة إذ ذاك مشغولاً بأمره، وبأمر شعب عسكر خراسان عليه، ومنتظراً أوبة رسوله من حضرة العلويين، فخرج أبو العباس وأهل بيته من الدار التي حبسوا فيها نحواً من شهرين ومعهم بعض وجوه العسكر الخراساني، ونزلوا بأحسن زى، وركبوا الخيول، وأتوا قصر الإمارة، فلما علم أبو سلة بذلك،

(١) الجهميادى ص ٥٧.

(٢) النجوم الزاهرة ج ١.

وجد نفسه أمام الأمر الواقع ، وأنه لا بد له من حسن السياسة حتى يسلم من تلك الغمرة ، وحتى لا تنجلي عن غضب العباسيين عليه ، فسار إلى دار الامارة في جماعة من أصحابه ، فأغلق الباب دونه ، « فاستفتح أصحاب أبي سلمة الباب ، وقالوا : وزير آل محمد ، فأسمعوه بعض ما يكره ، فقال أبو حميد : افتحوا له ، حتى يريه الله ما يرغم أنفه ، فدخل ، فاستقبل القبلية ، ثم سلم ، وقبل بدأ أبي العباس وقدميه ، وبدأ في الاعتذار . فقال له أبو العباس : عذرناك يا أبا سلمة غير مفند ، وحقك لدينا معظم ، وسابقتك في دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة ، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خال » (١) .

وبالرغم من أن السفاح دخل في نفسه شيء من أبي سلمة ، لأنه كان يحاول رد الأمر عنهم إلى غيرهم ، فإن حسن السياسة وحزم التدبير ، جعله يتغاضى عن سيئات أبي سلمة ، مع أنه لم ينس أنه يقيم ملكا ويهدم ملكا ، ولم ينس أنه قضى على بني أمية وهم قوم لهم في العرب عصبية ، ولهم في ولاية أمر المسلمين زهاء تسعين عاما ، ولم ينس أنه وثب إلى خلافة طالما من العلويون أنفسهم بها ، وطالما سعوا إليها ، ولم ينس أن بعضا من أهل بيته كانوا يريدون أن يلوا أمر المسلمين من دونه ، ولم يسكتوا إلا احتراماً لبيعة إبراهيم الامام ، وتهيباً من الدخول في أمر لا يعرفون عاقبته ، ولا أنهم كانوا في قلة من النصراء والاعوان ولم ينس أن أبا سلمة كان له نصراء وأعوان يعضون له ، وقد يشورون من أجله — لم ينس أبو العباس السفاح كل هذا ؛ ولذلك كان رده على أبي مسلم الخراساني عند ما كتب إليه يشير عليه بقتله ، ويقول له : قد أحل الله لك دمه لأنه قد نكث وغير وبدل — كان رده : « ما كنت لا أفتح دولتي بقتل رجل من شيعتي ، لا سيما مثل أبي سلمة ، وهو صاحب هذه الدعوة ، وقد عرض نفسه وبذل مهجته ، وأنفق ماله ، وناصح إمامه ، وجاهد عدوه » . فهو لا يفتح دولته بقتل أبي سلمة ، ثم يكتب فيه ما يكتبه في أحسن المخلصين له ، وإن كان يجد

في نفسه عليه ، ولعله يريد بذلك أن يعرف أبا مسلم الخراساني أنه ليس من شأنه أن ينتقم من أخلص له إذا أخطأ ، ثم رجع عن خطئه فتاب وأناب ، حتى لا تتم له رهبة الملك ، وخشية السلطان ، فيخلص ظاهره ولا يخلص باطنه ؛ إلا أن أبا مسلم كان يريد أن يتخلص من أبي سلبة ، لأنه يزعمه في مكانه ، ويحد من سطاته ؛ فلما رد عليه السفاح ذلك الرد ، الذي يرفض فيه أن ينفذ ما أشار عليه به ، وهو قتله والتخلص منه لخيانته وانحيازه إلى جانب الطالبين ؛ لم يقطع أمله ، وسعى سعيه عند أخ السفاح هو أبو جعدة ، وعم له هو داود ابن علي ، فكتب إليهما يسألهما أن يثيرا على السفاح بقتله ، فقال السفاح : « ما كنت لأفقد كثير إحسانه ، وعظيم بلانه ، وصالح أيامه ؛ بزلة كانت منه وهي خطرة من خطرات الشيطان ، وغفلة من غفلات الانسان » ، وبذلك لم يبلغا منه ما يريدان وما يريده منهما أبو مسلم الخراساني ؛ ولعل أبا مسلم كان قد استطاع أن يقنع أبا جعدة ، وداود بن علي بوجوب التخلص من أبي سلبة . ولكنهما حينما لم يفلحا في إقناع السفاح بوجوب التخلص منه ، نصحا له بأنه ينبغي له أن يحتسب منه لانهما لا يأمنا به عليه ، لأن له سابقة غدر وخيانة ، ومع ذلك فإن أبا مسلم لم يترشح عن رأيه وقال لهما : « إني لآمنه في ليلي ونهاري ، وسرى وجهرى ، ووحدى وجماعى »^(١) .

ولكن الذي تفهمه من الجهمياري أن السفاح هو الذي هم بأبي سلبة فقال له عمه داود بن علي : « لا آمن عليك أبا مسلم إن فعلت أن يستوحش ، ولكن اكتب إليه ، فعرفه ما كان من أبي سلبة ، فكتب أبو العباس إلى أبي مسلم ، يعلمه ما كان من أمر أبي سلبة في الكتاب إلى من كتب إليه من ولد علي وما كان أجمعه من صرف الدعوة إليهم ، فوجه أبو مسلم بالمرار بن أنس الضبي ، لقتل أبي سلبة » . وهذا لا يتنافى مع ما قدمنا ، فإنه طبعي أن يغضب السفاح من أبي سلبة أول الأمر ، ولا سيما أنه حبسه هو وأهل بيته شهرين بالكوفة ،

يسكتهم الناس أمرهم منتظرا رد من كتب إليهم من الطالبيين ؛ ولولا أن الله قيض له من علم أمره من العسكر الحانتين على أبي سلمة لخرج الأمر من يد السفاح إلى يد الطالبيين ، ولولا أنه كان يخشى غضب الأعاجم الذين عاونوه على الوثوب إلى الخلافة لقتل أبا سلمة أول مالقيه ليبياعه، ولا سيما أنه كان يعلم أن له شيعة تغضب له ، وقد ثور إذا أمكنتها الفرصة؛ ولعل أبا مسلم الخراساني كتب إلى السفاح يشير عليه بقتل أبي سلمة بعد أن كتب إليه السفاح يخبره فيه خبر خيائته ، وخروجه عليه ولعل تحذير داود بن علي عم السفاح قتل أبي سلمة كانت قبل موافقه أبي مسلم على قتله وإلحاحه في ذلك .

فلما هدأت الأحوال ، واستقر الأمر في يد السفاح ، وانحاز إليه أبو مسلم في شأن أبي سلمة أعلن رأيه للناس في أبي سلمة ليطمئنه ويطمئن أشياعه ودعاه ليسمر عنده مع السامرين ، وأرسل مناديا ينادى في الكوفة أن أمير المؤمنين قد رضى عن أبي سلمة ، ثم دعاه وخلع عليه .

ويظهر أن ما كان يتصف به أبو سلمة من حميد الصفات ، وما كان عليه من فصاحة اللسان ، والعلم بالأخبار والأشعار والجدل وتفسير القرآن ، وما كان عليه من حضور الحجة ، وكثرة الجد ، وكثرة العطاء والبذل ، والتأنق في السلاح والدواب — يظهر أن ذلك كله مضافا إليه ما تستلزمه الحنكة السياسية والدربة على تدبير الأمور — جعل السفاح يقرب أبا سلمة إليه . ويجلسه في مجالسه ، ويفسح له في أوقات السمر ، إيهاما لهم برضاه عنه .

ظن أبو مسلم أن الخليفة رضى من قلبه عن أبي سلمة ، وأنه لا يبيت له شيئا في نفسه ، وأن ما أعلنه للناس عن رضاه عنه صحيح ، فأكبر ذلك الخافق في الخليفة بالرغم من أنه هو الذى كان يحاول أن يدفعه إلى قتل أبي سلمة .

وهنا يختلف المؤرخون فيمن أمر بقتل أبي سلمة ، فإن الخليفة رضى عنه ظاهرا ، وأنس به ، ودعاه يسمر عنده ، لأنه كان فكها ممتعا أدبيا عالما بالسياسة

والتدبير كما قدمنا ، ومع ذلك يقول بعضهم : إنه هو الذي دس عليه من قتله بعد أن سمر عنده ليلة ، وخرج يريد الانصراف إلى منزله ، فكان له كمين وقتله ، فلما علم بذلك السفاح قال : للدين وللغم . ويرى آخرون أن أبا مسلم الخراساني خاف من ناحية أبي سلمة أن يقصده بالمكرهه ، فوجه جماعة من ثقات أصحابه في أعمال الحيلة في قتل أبي سلمة ، فلما انصرف ليلة من عند السفاح ، وليس معه أحد ، وثب عليه أصحاب أبي مسام وقتلوه ، فلما علم السفاح الخبر ، قال :

إلى النار فليذهب ومن كان مثله على أى شىء فاتنا منه نأسف !!
ومهما يكن من شىء فإن أبا سلمة قتل ، وكان قتله عند منصرفه من مجلس السفاح ، وأن السفاح سره أن يتخلص منه ، وكان قتله فى رجب سنة ١٣٢ هـ أى بعد بيعة السفاح بشهرين وبعض شهر ما .

محمد أحمد برانق

نص المحاضرة التي ألقاها

الأستاذ عبد الرزاق صميرة

بالنادي مساء يوم الخميس ١٤ يونيو سنة ١٩٣٦

مسيدى الرئيس :

أساتذتى الأفاضل وإخوانى الأكرمين .

أشكر إنادينا تلك الفرص السعيدة التي يهيئها لنا لتتلاقى ويتحدث بعضنا إلى بعض أحاديث لا نعرض فيها لأحد يسوء ولا نذكر أحدا بما يكره ، وليست من طو الحديث الذي يضل الناس بغير علم . وإنما هي أحاديث دائرة حول خدمة الدين ولغة الدين .
ولا أخفى عليكم أنى كنت قد أعددت لحضراتكم شكرًا جزيلًا على تفضلكم بالحضور لساع حديث عن الخرافات مضحين بيوتكم .
ولكنى نسيت ما أعددت ، وما أنسانيه إلا ظرف أساتذنا الرئيس الكريم وجميل ثنائه على ، حتى أخجل قرائعى . رفوت على فرصة عظيمة أشكر فيها للاخوان حسن تشجيعهم .
على أنى أرجو أن يكون فى حديثى سرور لكم وإمتاع . قد أعددت غير مسبوق إليه فى لغتنا ، ورجائى أن يوفقنى الله فى أداءه عليكم كما ووفقنى فى كتابته . وهوولى التوفيق .

الخرافات (Fables)

نقصد بهذا العنوان ما يسمى بالانجليزية fables وبالفرنسية Fables وهي « قصص أدبية من النثر أو الشعر فيها عنصر التمثيل ، ويمثلوها شخصيات غير عاقلة من البهائم أو الطير أو الجماد ؛ تبدو فيهم دائماً طبيعة الانسان ، (ويقصد منها التعليم أو الامتاع واللهو) ، باطن هذه الخرافات الحكمة ، وظاهرها لهو وإمتاع .

ومن الممكن أن نطلق عليها « الخرافات » فقط ، بدلا من الحكايات الخرافية : وقد سماها ابن النديم كذلك في الفهرست إذ عقد فصلا سماه : « باب الأسماز والخرافات » . ومثل للآل بقبصة ألف ايلة وليلة . وللثاني كيلة ودمنة . وكلمة « خرافة » الآن أوسع معنى ، إذ تشمل إلى جانب القصص السابق وصفها ، كل مالا أساس له من العقل أو الدين من عقائد وعادات ؛ ولكن الاستعمال كفيل بتخصيصها بالمعنى الذى شرحته آنفا .

أما كلمة « خرافة » فأخوذة من اسم شخصية عربية مشكوك في وجودها ، وصاحبها رجل اسمه خرافة . يقال إن الشياطين استهوت في الأرض وغاب عن قومه زمانا ثم عاد إليهم وحدثهم أحاديث بعيدة عن المعقول . فكذبوه ثم شبهت بأحاديثه كل الأحاديث التي هي بعيدة الاحتمال . وفي لسان العرب ما يزيد هذه الكلمة ترجمة للكلمة الإنجليزية أو الفرنسية .

أما هذه الحكايات فلها علامات مميزة لها ؛ منها ، أن عالم الحيوان الذى تستمد منه أشخاصها لابد أن يحتفظ بحقيقته وغرائزه في القصة . ومنها أن يركب صاحب الحكاية في الأبطال عقولا وألسنة من عقول الناس وألسنتهم لنفهم وتفصح عن أغراضها . ولابد من اشتغال هذه الحكايات على كلا النوعين ثم لابد من أن يكون مغزاها عاما ، ينطبق على كل الأزمان والأمكن .

نشأتها الأولى :

عرف الإنسان الأول هذا النوع من الحكايات ، ومن السهل أن نفهم وجودها عنده . فقد كان يعيش عيشة سهلة ساذجة . وكان عقله بسيطا ساذجا ، وكان قريبا من الحيوان في تفكيره ومعيشته ، وكان يساكنه ويتصل به اتصال نفق أو خوف . فبعض الحيوان يؤدي له خدمات مهمة ضرورية وبعض غرائز الحيوان عجيب مدهش حتى في عمور الحضارة والمدنية ، فلا غرابة إذن أن يرى الإنسان الأول نوعا من المساواة بينه وبين الحيوانات ، وأن

يرى فيها أنصاف أناسى . وأن يتصور قدرتها على القول والفهم والتمثيل، وأن يصوغ ذلك فى قالب حكايات .

ثم تطور الإنسان . ونما عقله ، وزادت معرفته بالحيوان وغرائزه والجماد وخواصه . فزاد إكباره لهذه الغرائز والخواص ودهشته منها ، وزادت تجاربه فى الحياة ، ودقت ملاحظته للاخلاق عامة . فبعثه ذلك إلى صوغ تجاربه . وملاحظته فى قالب قصص ممتع هو الحكايات التى على ألسنة البهائم والطيور والجماد ، وضمنها الحكمة البالغة ، والرأى الصواب ، والمغزى الخلقى القويم ، وأصبحت لهذه الحكايات على مر الزمن قيمة جدية ، وفائدة عظيمة :

وقد وجد من هذه الحكايات نوع على ألسنة الجماد والزهر يفسر بعض مظاهر الطبيعة . وهو تفسير فلسفى ساذج ، فى الأمم القديمة ، كالفرس واليونان والمصريين ، ولكن هذا داخل فى دائرة الأساطير .

ويلاحظ بوجه عام أن ما يختار من عالم الحيوان هو أذكاه كالقردة والفيلة ، أو أنفعه كالثور والحمار ، أو آلفه ، كالقط والكلب ، أو ما يمتاز بصفة ظاهرة كالثعلب لمكره ، والنمل لصبره ، والنحل لنظامه ونظافته .

أنواعها :

الحكايات الخرافية يحسب البيئة التى نشأت فيها نوعان : غربية وشرقية أما الغربى منها فقد وجد من عنى بتاريخه كل العناية من علماء الغرب . وأما الشرقى فقد أجهدت نفسى رجاء أن أكشف عن حقيقته وقيمه وأجمل تاريخه فى هذه الصفحات القليلة العدد .

والآن أبدأ بالكلام عن النوع الأول :

(١) الخرافات الغربية :

ليست الخرافات الغربية سابقة فى الوجود على الشرقية . ولا معاصرة لها ، وإنما هى وليدها ، ومن المؤكد أن الخرافات جاءت إلى اليونان من آسيا

الصغرى ، واشتهر السوريون بأنهم مبتدعوها ، أو ناقلوها من الشرق الأوسط إلى اليونان ، والإغريق الذين استعمروا آسيا الصغرى هم آخر مرحلة انتقلت فيها — القصص التهذيبية الرمزية من الهند إلى بلاد الإغريق .

وقد زاد اليونان على ما نقل إليهم ، ولكن هناك أصلا مشتركا للخرافات الهندية والإغريقية هو الحكم الطبيعية . أو الثروة الموروثة من الروايات والتقاليد أو من الأساطير والمعتقدات التي حملها معه الجنس (الهندي — الآرى) النازح من أواسط آسيا إلى الغرب . وكان منه الإغريق . وقد انتفع هؤلاء بما نقل إليهم . وزادوا فيه . وحولوه بعقولهم الناضجة وخيالهم القدير على الاختراع . وصبغوه بصبغة قومية . ضيعت معالمه الأولى .

وتمتاز الخرافة الغربية بقصرها وسهولتها . وخلوها من الاستطراد . بعد هذه السطور القليلة أعرض لشخصية عظيمة من واضعي الحكايات هي شخصية Esope إيسوب :

إيسوب

ولا يعرف عنه شيء على وجه التأكد ، ويقال إنه رقيق يوناني عاش في سامس Samos حوالي القرن السادس قبل المسيح . وهو الذي «أقلم» الخرافة اليونانية . وجعلها سهلة طبيعية محبوبة إلى الناس . ويرجع إليه الفضل في الاختصار والسهولة اللذين عرفت بهما الخرافات في الغرب بعد ذلك .

واسمه يشبه اسم هومر ، في أن كلا منهما مبتدع لنوع عظيم من أنواع الأدب الغربي ، فهومر مخترع الملاحم ، وإيسوب مخترع الخرافات ، وقد كثرت الكلام حول وجودهما التاريخي فأثبتته قوم وأنكره آخرون ، أما هيرودوت فثبت وجود إيسوب . ولكن وجوده التاريخي لا يؤيد صحة مانسب إليه من الخرافات ، ولا أنه هو كاتبها . فمن الجائز أن يكون قد أنشد بعضها وعرف عنه ثم جمع من بعده مضافا إليه ما زاده المقلدون والمنشثون ، وجمع ذلك كله

منسوبا إليه في مجموعة واحدة .

وبعده بثلاثة قرون ألف رجل اسمه ديمترياس فالير Demettrinus Phalére مجموعة (من الخرافات) جاء بها من الخرافات المصرية، ولكنها ضمت إلى المجموعة الأولى ونسبت إلى إيسوب .

وجاء من بعده شخص اسمه بابرياص Babrius حوالي خمسين سنة قبل المسيح، ف نظمها شعرا متينا، وقلده من بعده كثيرون في اليونان والرومان من أشهرهم دوشياص ماجيستر «Dosiirpus Maqister» في عهد هادريان وأفيانوس Avianus في عصر تيودوس Tneodose .

أما الخرافات اللاتينية فليست إلا تقليدا لليونانية، وقد نظمها Phedre شعرا، وهو من الشعراء الذين عاشوا في زمن أغسطس August ولا يعرف عنه إلا القليل، وقد جهلته القرون الوسطى، وأعرضت عن خرافاته حتى كشف عنها في عصر النهضة، وكان عددها مائة وسبعا وعشرين حكاية، وبعد زوال المجد الروماني، اختفت هذه الحكايات، وحفظت بجموعاتها في الأديرة «الديورة» وأشهر ما عرف منها هو المجموعة المسماة روميولص Romulus وهي ليست إلا حكايات Phedre مشورة .

في العصور الوسطى

نهضت في العصور الوسطى أمم متعددة في الغرب، وتجددت الأفكار والمعاني في تلك الأيام، وتجددت الحكايات الخرافية كذلك وأخصبت، واستحدث بعضها وأعيدت كتابة القديم منها، وعرفت الحكايات الشرقية الخصبة طريقها إلى أوروبا عن طريق عرب إسبانيا والحروب الصليبية . وزيد في الحكايات المأخوذة من كليله ودمنة، ونشأت حكايات جديدة مأخوذة من التجارب ومن عمل الخيال حتى كانت هناك في هذه العصور أنواع ثلاثة متميزة من الحكايات الخرافية، أولها من النوع القديم «الكلاسيكي»، الذي جاء من اليونان والرومان

وثانيها من الشرق عن طريق العرب في إسبانيا، والحروب الصليبية، والثالث مبتدع، وامتاز النوع الشرقي فيها بوجود الشخصيات الغريبة، والحوادث، والأخلاق، وقد اختلطت أحيانا بغيرها من النوعين الآخرين في مجموعة واحدة. وكثير من خرافات القرون الوسطى لا يعرف قائله، ولا جامعها، اللهم إلا ما ينسب إلى ماري الفرنسية Marie of France التي عاشت في إنجلترا وبلجيكا حوالي منتصف القرن الثالث عشر في عصر هنري الأول الإنجليزي، وكان للحكايات سنوق رائجة في هذه العصور، وعرفها الناس على اختلاف درجاتهم ما بين منشىء لها ومعيد لما عرف منها، وكانت محببة إلى الجمهور الأعمى، وكان طريقها إلى القلوب ممهدا.

وفي القرن السادس عشر كسدت سوقها إلا عند المتعلمين. غير أنها لم تلبث أن عادت إلى الحياة في صورة جديدة، فذيلها الكتاب بأسمائهم، وخلت من التعقيد والاستطراد، وأصبحت قصيرة، وسميت الحيوانات بأسماء، أعنى أنها خلت من الأثر الشرقي، وكان الفضل في كل ذلك للإيطاليين.

حوالي ذلك الوقت نبذت إسبانيا التعصب جانبا، وأظهرت تفضيلها للخرافات الشرقية على الوطنية، وآثرت ما ورثته من العرب الذين استعمروها وعمروها مئات السنين.

وقد حدثت في فرنسا نهضة تشبه نهضة إيطاليا، واتخذ كتاب الحكايات من سبقوهم مثالا لهم. غير أن الضعف لحقهم في أوائل القرن السابع عشر، إذ انصرف القوي إلى شعر البطولة والسياسة؛ حتى جاء لافنتين فمض بالخرافات نهضة قوية.

ميرين دي لافنتين La Fontaine

ولد في يولييه سنة ١٦٢١ في حصن تيزرى Chateau Thierry في بلدة

لابارى La Barie على المارن . وهو أكبر أولاد شارل لافورنتين رئيس المياه والغابات فى دوقية تيرى .

وكانت أسرته غنية ، وبيته بيت علم وأدب ، فلا غرابة أن يدرس الآداب القديمة ، وأن يكون له ذوق فى الشعر . وكانت الأرستقراطية تتوحد إلى الطبقة الوسطى ، طبقة العلم والآداب فى أيامه ، فساعده ذلك كما ساعد راسين وبوالو وفولتير .

وقد دخل دير سانت ماجلوار Saint Macloire فى العشرين من عمره غير أنه ضاق ذرعاً بالحياة هناك ، فعاد إلى الدنيا .

واتصل بفوكيه العظيم ، وزير مالية فرنسا فى عصر لويس الرابع عشر . وقد ورث محبته للشعر عن والده ، فقرأ كثيراً ، وأحب الريف ، وغذى خياله منه ، وقرأ لشعراء فرنسا وغيرهم من القدامى أمثال هوارس وفرجيل . وعرف الحكايات الهندية ، وكليلة ودمنة ، وكثيراً غيرها من الحكايات الشرقية ، التى نقلت فى العصور الوسطى ، وعرف المشهور من حكايات أفينوس وبايرياس ، وإيسوب وفدر ، وقرأ ما نسب إلى الطليان والفرنسيين ، وأحب رابليه « Rabelais » ومارو « Maror » وكل كتاب الحكايات فى القرن السادس عشر ، وأضاف إلى ذلك كله قوة إبداعه . وقدرته على نسج الشعر الرصين .

Les Fables des la Fontaine (خرافات لافنتين)

أهم ما يمتاز به على وجه الإجمال : أنها مصوغة فى قالب قصة ، فيها حوار أو حديث بين الأبطال ، وفيها الشخصيات مصورة بدقة ، وفيها المغزى الخلقى ، والانسجام والترتيب فى سرد الحوادث ، وفيها تنوع ، وتجديد ، وقد لبس الشاعر لكل حكاية لبوسها وصور أبطالها من الحيوان أو الطير تصوير عالم بطباعها ، وأبرز المغزى الخلقى أو السياسى أو الدينى أو الفلسفى واضحاً فيها ،

ولكل هذه الميزات يكاد يعتبر لافتتين سيد من كتب الحكايات الخرافية في العصور الحديثة . أو هو سيدهم كما تقول دائرة المعارف البريطانية ، تحت عنوان

« Fables » .

وننتقل بعد هذا العرض القصير إلى النوع الثاني الذى يعنينا أكثر من

غيره ، وهو :

(٢) الخرافات الشرقية :

قلنا إن الخرافات الشرقية أقدم من الغربية فى الوجود ، وأقدم الخرافات الشرقية هى الخرافات الهندية ، وأقدم ما بين أيدينا منها هو المجموعة المسماة (الفصول الخمسة «Lecinq Chapitres» Pantcha tantara) ، ويرجع تاريخها إلى القرون المسيحية الأولى ، ولكل فصل منها عنوان مستقل مثل حرب البوم والغربان «La guerre Des Cerbeaux et des Hilboux» و«شراء الأصحاب» «L'aquisition des amis» .

ومؤلف هذه « الفصول الخمسة » — كما فى النسخة السنسكريتية — هو

فيشوكارمن « Vishocarman » .

ولكن من أين جاء اسم بيدبا أو بلباي Bidpai أو « Bilpai » الذى تنصرف إليه الأذهان عند ما يذكر اسم الخرافات الشرقية ؟

فى القرن السادس ترجمت الفصول الخمسة إلى الفهلوية ، وهذه الترجمة غير موجودة الآن . وفى القرن الثامن الميلادى — الثانى الهجرى — ترجمت هذه الفصول إلى العربية تحت عنوان « كليله ودمنة » .

كليله ودمنة :

والذى ترجمه هو ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، وقد سمي الكتاب باسم بطلى القصة الأولى فيه ، وكليله ودمنة ليسا إلا نوعين من أنواع الثعالب ، وقد تخيل مترجمه أن الكتاب من عمل قسيس هندي اسمه « بيدبا » ومعناه

الحكيم أو الفيلسوف — وأنه كان يعيش في زمن ملك اسمه دبشليم . وكان هذا الملك غاشما ، يظلم الناس ويبغى في الأرض بغير الحق ، فضاق به ذرع « بيدبا » ورأى من الواجب عليه أن ينصح للملك ، وأن يرده عن ضلالته ، ولتكن عاقبته ماتكون ، فكان جزاؤه السجن ، وجزاء أنصاره التشريد . ثم ثاب الملك إلى رشده فدعا بيدبا من سجنه ، واعتذر إليه ، وأمره أن « يضع له كتابا بليغا . . . يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته » ، فجمع تلاميذه وأخبرهم بأمر الملك واصطفى منهم رجلا ، يملئ عليه ويكتب ، « حتى استقر الكتاب على غاية الإلتقان والإحكام » ، وسماه « كلية ودمنة » .

« ثم جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطيور » . « ورتب فيه أربعة عشر بابا ، ثم قدمه إلى الملك فأكرم مشواه وأحسن جزاءه . وضم الكتاب إلى نقائس كتبه .

نقد الى فارس :

يحدثنا ابن المقفع أن بيدبا كان يخشى على كتابه من الفرس ، ثم يحدثنا بعد ذلك أن كسرى الفرس أنوشروان العادل سمع بهذا الكتاب فأمر وزيره بزرجمهر بن البختگان أن يختار له من يحتال على نقله من خزان الهند ، فاختار له (برزويه) المتطبب ، فأنفذه إلى بلاد الهند ، فكث بها عشرين عاما يتعلم الهندية ، ويتخير واحدا من الرجال يأتمنه على سره ، ويستعين به على قضاء حاجته ، حتى وفقه الله إلى أمين الخزانة الملكية فكنه من الكتاب ، فنقله ليلا ، ثم عاد إلى بلاده ، فعظمت منزلته عند سيده كسرى ، وأراد جزاءه ، فأثر برزويه بقاء اسمه على الأيام ، وطلب أن يحزى على عمله بتدوين سيرته في صدر الكتاب ، فأمر الملك وزيره بزرجمهر أن يضطلع بهذا الأمر ، وأن يسعف برزويه بحاجته وطلبه ، وأن يكتب بابا مضارعا لتلك الأبواب في

الكتاب ، ويدكر فيه خبر برزويه تفصيلا ، ففعل .
وقد اتفق على نسبة هذا الكتاب إلى الهند كل كتاب الغرب يقريبا ،
فالاستاذ براون يقول في الجزء الثاني من كتابه تاريخ الفرس :

« أما أصلها — أصل الترجمة العربية — فهو هندي ، وتقلت إلى فارس في
القرن السادس للميلاد ، في عهد كسرى أنوشروان ، وترجمت إلى اللغة
الفهلوية ، ومنها إلى السريانية والعربية ، ومن العربية إلى لغات كثيرة شرقية
وغربية . »

ويقول الأستاذ « نيكلسن Nickelson » في كتابه تاريخ الادب العربي
« أما ابن المقفع فقد ترجم كتابه من الفهلوية ، وأصل الكتاب في السنسكريتية
ومعناه « خرافات يديبا » . »

وكذلك كتاب الشرق ، اللهم الا ابن النديم فيما نقله عن محمد بن اسحاق
صفحة ٣٠٣ (تحت عنوان باب الاسمار والخرافات) إذ يقول : « قال محمد بن
إسحاق : « وكان قبل ذلك — قبل الجشهياري الذي حاول جمع ألف سمر وخرافة
وجمع منها ٤٨٠ ليلة ، كل ليلة سمر تحوى على خمسين ورقة أو أقل أو أكثر
من يعمل الاسمار والخرافات على السنة الناس والطير والبهائم — جماعة ، منهم
عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هرون ، وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم »
وقد استقصينا أخبار هؤلاء وما صنفوه في مواضعه من الكتاب ، وأما كتاب
كليلة ودمنة فقد اختلف في أمره فقل عملته الهند ، وخبر ذلك في صدر
الكتاب — كليلة ودمنة — وقيل : عملته ملوك الاسكانية ونخلته الهند ، وقيل :
عملته الفرس ونخلته الهند ، وقيل : إن الذي عمله بزرجمهر الحكيم اجزاء ، والله
أعلم بذلك . »

ويقول ابن اسحق في المصدر نفسه « أول من صنف في الخرافات وجعل
لها كتابا وأودعها الخزائن ، وجعل ذلك على السنة الحيوان الفرس الأول ،

ثم أغرق في ذلك ملوك الأشعانية ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس . ثم ذلك واتسع في أيام ملوك الساسانية ونقلته العرب إلى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء ، فهدبوه وتمقوه ، وصنفوا في معناه ما يشبهه .

أما الكتاب نفسه فله قيمة إنشائية سامية ، وهو مثل صادق تتجلى فيه صفات الخرافات الشرقية من الطول ، والاستطراد ، واستمداد المغزى الخلق من التجارب العملية ، لامن التفكير الفلسفي . فباب الأسد والثور وهو أول باب في الكتاب ، يبدأ بالصحيفة الحادية والتسعين ، وينتهي في الرابعة والخمسين بعد المائة .

والاستطراد ظاهر جدا في كل القصص . خذ لذلك مثلا ، « باب الحمامة المطوقة » . ساق الفيلسوف قصتها حديثا عن إخوان الصفاء ، كيف يتدبّر تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض :

كانت الحمامة مقيمة بأرض سكاوندجين ، ومعها غراب وجرذ ، ومر الصياد ذات يوم ونصب شبكته ، فوقعت فيها المطوقة مع كثيرات غيرها من بنات جنسها ، فأشارت عليهن ، فجمعن أمرهن وطرن بالشبكة ، والصياد من ورائهن حتى ينس فرجع ، أما المطوقة وصاحباتها فقد سرن حتى أتبن إلى مسكن الجرذ فسقطن ، وكان له مائة جحر للخاوف ، فنادته باسمه فخرج ، ثم ابتدأ يسألها عن سبب هذه الورطة فأمرته أن يقرض الشبكة أولا ثم يسأل ، فأراد أن يقرض العين التي هي فيها ، فأبت عليه ذلك ، حتى ينقذ صاحباتها أولا ، وذلك لثلا يدركه الكلال قبل إنقاذها .

كان الغراب قد تبع الحمامة في سيرهن إلى الجرذ ، فلما رأى نفعه ومعونته في الشدائد ، رغب في مصادقته فأبى عليه الجرذ . قائلا : ليس بيني وبينك تواصل ، غير أنه لان أخيرا وقبل صداقة الغراب ؛ وحمله هذا بعد مدة إلى صديقة له من السلاحف ، فلما جاء قص القار عليها قصته ، وسبب بلائها ونكبتها

في طالب المال، ثم أنس كل منهما إلى صاحبه، وانضم اليهم ظبي نانراً فأكرموا لقاءه، وأمنوه، وصاحبهم، ثم غاب يوما، فأرسلوا الغراب يستطلع خبره فوجده في جبال صياد، فعاد وأخبر الجرذ والسلحفاة فذهبا لإنجائه، فكاذا الجرذ ينتهي من قطع الحبال حتى جاء القانص، ففر الظبي، واختفى الفأر، وطار الغراب، ووقعت السلحفاة في يد القانص فربطها، فاحتال الفأر والغراب والظبي حتى نجوها بحيلة لطيفة.

وقد ختمت القصة بحث الناس على الاقتداء بهذا الحيوان الأعجم، أما لغتها فهي عالية، وأمثالها كثيرة، ومواعظها متمشية مع قصصها الاستطاردية ومغازيها عادية كال تعاون، والإيثار، والحذر من لا يشاكل، وفائدة الصداقة عند الشدائد، وما يجلبه حب المال على صاحبه من ويلات.

أما أبواب الكتاب الآن فهي خمسة عشر، وكلها تسير على هذا النحو من الطول والاستطارد ووجود المرعظة في ثنایا القصة صريحة.

هذه خلاصة للكتاب، أصله وترجمته، وعلاماته المميزة له وللخرافة الشرقية بوجه عام، وقد ترجم إلى كثير من لغات العالم حديثها وقديمها، فترجم إلى الفارسية مرة ثانية، في عهد الدولة الغزنوية وقد نظمها في الفارسية شاعر اسمه روداجي « Rudagi » في عهد الدولة السامانية.

وقد قفى على أثر ابن المقفع كثير من رجال الأدب في الشرق والغرب، فهذا سهل بن هرون أمين خزانة الحكمة عند المأمون، قد كتب على نظامها كتابا سماه « ثعلبه وعفراء » وقد كان شعوبيا فارسيا، وهو صاحب رسالة « البخل » المشهورة التي كتبها لبعض أقاربه، وقدمها إلى الحسن بن سهل؛ فجازه عليها بقبولها، ولم يصله (١) وأبان بن عبد الحميد اللاحق قد نظمها شعرا، وهناك كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية، وبمجموعات أخرى قليلة

لغيرهم من الأدباء .

وأما لقمان الحكيم الذى تنسب إليه بعض الخرافات العربية ، مثل ما ينسب بعض آخر منها إلى الفيلسوف بيدبا ، فهو فى نظر مؤرخى الآداب الغربية خيال مثل بيدبا ، وقد كادوا يجمعون على أنه هو المعروف عندهم باسم «إيسوب» الإغريق ، للتشابه العظيم بين الخرافات المنسوبة إلى كليهما .
وأما وجهة نظرنا نحن المسلمين فهى أن لقمان شخص تاريخى ، آتاه الله الحكمة ، ويقول ابن جرير الطبرى فى تفسيره : « قال قتادة لم يوح إليه ولم يكن نبيا ، وعن مجاهد أنه كان صالحا ، ولم يكن نبيا ، وعنه ، أنه كان عبدا حبشيا مصفح القدمين قاضيا على بنى إسرائيل ، وأنه كان عبدا حبشيا نجارا ، فأمره سيده أن يذبح شاة ويخرج بأحسن مضغتين فيها فأخرج القلب واللسان ثم أمره أن يذبح شاة أخرى ، ويأتيه بأخبت مضغتين فيها ، فأتاه بالقلب واللسان ، فسأله سيده فى ذلك فأجابته : لم أجد أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبت منهما إذا خبئا » .

وأما الخرافات العبرية ، فقد وردت فى الكتاب المقدس قصصا على ألسنة الحيوان ، والقصد منها أن توضح العقائد ، وتشرح الواجبات شرعا وأفيا ، « وهى المعروفة بالأمثال » .

وهذه الخرافات تختلف اختلافا أساسيا عن الخرافات الهندية ، فهى مختصرة اختصارا بليغا ، وفيها قوة وروح استقلالية تخلق فيها الحياة ، وبوساطتها تصل الحقائق إلى العقول واضحة ، وترك أثرا ظاهرا لا يمحو ، وهذا يبين لنا السبب فى بقائها منذ عهد عهد قوية ناجحة ، فعالة الأثر .

فى العصور الحديثة :

وما زالت الخرافة تنتقل فى خلال القرون ضعيفة لا يعنى بها إلا القليل ، حتى جاء العصر الحاضر ، ورأينا من شعرائنا من عرف لغة لافتين ، وأعجب

بخرافاته فاقبس منها أو ترجمها. ومن أشهر هؤلاء المرحوم محمد عثمان جلال، صاحب كتاب «العيون اليواقظ»، في الأمثال والمواعظ. وهو كتاب نظم فيه الشاعر مائتي قصة معظمها على السنة الحيوان، وبعضها شعر وبعضها زجل.

وهاكم أهم ما يسترعى انتباه القارئ في هذا الكتاب:

- (١) أن شعره من نوع غير جيد.
 - (٢) على الرغم من هذا نجده خفيف الروح تبرز فيه العامية بالعربية فيحلو هذا الامتزاج ويخف على نفس قارئه وسامعه.
 - (٣) يختم كل حكاية بمثال كيفما اتفق، فتارة يكون عاميا. وتارة يكون عربيا معترفا بعربيته، وتارة يكون من وضعه.
 - (٤) يحاول أن يعطي حكاياته صبغة وطنية، ويجعل حوادثها تقع في بلاد مصرية أو شرقية، مع أنها حكايات عالمية، صفحة (٥٦) الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج، أو يرويها عن علم مشهور من أعلام الدين أو الأدب وقد لا يكون بينهما صلة إلا ضرورة الشعر.
 - (٥) قربها من الخرافات الغربية في الخلو من التعقيد والاستطراد. وكثرة الشخصيات، وذلك لتأثر منشئها بالاصل الفرنسي.
- وأسوق هنا الحكايات الآتية برهانا على دعواي:
- مثل الحكاية الحادية عشرة في الثعلب والغن:

حكاية عن ثعلب مر من تحت الغن
وشاهد الغنقود في لون كلون الذهب
وغيره من جنبه أسود مثل الرطب
والجوع قد أودى به بعد أذان المغرب
فهم يبغى أكلة منه ولو بالتعب

عالج ما أمكنه يطلع فوق الحشب
فراح مثل ما أتى وجوفه فى طب
وقال هذا حصرم رأيتـه فى حلب
والفرق عندى بيته وبين تين العلب
فإن هذا أكله يشبه لحم الأرنب
ولحم ذاك مالخ كالضرب فوق الركب
قال له القطف انطلق نعلب ابن ثلعب
طول لسان فى الهوا وقصر فى الذنب

فالشعر هنا من نوع غير جديد أو « كالضرب فوق الركب » تمتزج فيه العامية بالعربية . وقوله « وقصر فى الذنب » ليس إلا المثل العامى « قصر ديل يا أزعر » ولكنه خفيف الروح يمثل الظرف المصرى ، وبعبء عن المزح الذى عرف به المصريون .

« والحكاية الرابعة والخسون ، فى الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج ، تتجلى فيها عدا ما ذكرت محاولة الشاعر أن يصبغ خرافاته بالصبغة الوطنية فيقول :

حمار بولاق له حمير وفى البلاد شغله كثير
حمل جحشا حمل ملح قاسى وصار لا يرثى ولا يواسى
وحمل الآخر بالسفنج وقال سبحان الاله المنجى
فحمل السفنج صار يسعى وحامل الملح النهيق قطعاً
وحين أقبل على المعادى ونزلا الماء بيطن الوادى
امتلا السفنج صار مثقلاً والملح حين ذاب خف محملاً
فغطس الحامل للسفنج كغطسة البذرة فى النارنج

وطلع الملاح وهو ينهق وهكذا رب أسير يعتق
فما صبر على أهوالها ولا صجر فربما فاز الفقى إذا صبر
وربما جاءك بعد الياس روح بلا كد ولا التماس
فالحكاية شائعة عندنا وعند غيرنا، ولم يكن صاحب الخمارين « بولاقيا،
ولا ذهب الخماران فى طريق المعادى، اللهم حين قادهما محمد بك جلال فى
شعره من بولاق إلى المعادى، وأغرق أحدهما فى النيل ونجا الآخر، ورجع
« وهو ينهق ».

ويروى فى الحكاية الخامسة والخمسين.

حكاية عن شجر البلوط نقلتها عن شيخنا السيوطى
والحق أن الشيخ السيوطى لم يأت هنا، ولم يذكر اسمه إلا لأنه مترن مع
« شجر البلوط » الذى نخر على القول بعلوه وعظمته فجاءت الريح فكسرت
كبريائه، وانحنى لها القول واستوى هو على سانه بعد ذهابها.
وهناك أديب آخر نظم حكايات ظريفة. وهو إبراهيم بك العرب صاحب
كتاب « آداب العرب »، وفيه حكايات غير الخرافات، وكل شعرها جيد.
وأمثالها التى تختتم بها عربية.

وقد نظم المرحوم شوقى بك كثيرا من قصص لاوتين نظما جيدا،
ولكنه لم يوجه همته العالية، ومقدرته العظيمة إلى الاختراع أو الترجمة فى هذا
الباب الواسع من أبواب الأدب

بعد كل هذا العرض الموجز لتاريخ « الخرافات » من الناحية الأدبية أعرج
على آثارها فى تربية النفوس فأقول: إن علماء التربية لم يتفقوا جميعا على فائدتها
بل رأى بعضهم أنها خطر، ومنهم روسو الذى قال: إنها غير خلقية ومفسدة
للشبان، وكذلك فولتير الذى وضع قيودا كثيرة عليها.

ولكن جمهور القراء وغير القراء فى كل زمان ومكان قد أحب تلك

القصص وأقبل عليها . واستفاد كثيرا من الأغراض المضمنة فيها ، وسبب ذلك أنها تسلي الكبار والصغار ، وتخرجهم من عالم آخر خيالي ، وتحمل إليهم الفضائل على السنة مخلوقات أضعف منهم عقلا ؛ فيدفعهم ذلك إلى الإقبال على الفضائل والنفور من الرذائل كي لا يكونوا أقل من الحيوان خلقا أو استماعا للنصح . ولا شك أن طريقها القصصية أخف كثيرا من طريقة التلقين الجافة . ولهذا كانت أعذب موردا ، وأكثر قبولا . وقد شغل سقراط - ومركزه بين المربين عظيم - نفسه بنظم ما نسب إلى «إيسوب» . وكذلك «جوته» شاعر الألمان العظيم نظم حكايات الثعلب رينار ، وذلك بلا شك دليل على تقدير المربين لها .

وعما يتصل بالموضوع ويؤيده ما ذكره ابن المقفع في «باب عرض الكتاب» إذ ذكر الغرض من وضع الحكايات الخرافية على السنة الحيوان فيقول صفحة ٥٨ .

« ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل ؛ ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل ، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطيور ، فاجتمع لهم بذلك خلال . أما هم فوجدوا متصرفا في القول وشعابا يأخذون منها . وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا ؛ فاختره الحكماء لحكمة ، والسفهاء للهو ، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ، ولا يدري ماهو . » .
فلك أغراض العلماء وغاياتهم ، وتلك نظرات الحكماء والسفهاء إلى هذه الحكايات .

أما نصيحته للقارىء ، ونصيحتنا كذلك له ، فهي « أن يعرف الوجه الذي وضعت له ، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه ، عندما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مفصح ؛ وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالا ؛ فإن قارته متى لم يفعل

ذلك لم يدرك ما أريد بتلك المعاني ، ولا أى ثمرة يجتنى منها ، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب ، وإنه وإن كان غايته استتمام قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرأ منه لم يدرك عليه شئ يرجع إليه نفعه .
ثم يختم « باب عرض الكتاب » بالسطور الآتية :

وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض :
أحدها ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان ، تستمال به قلوبهم . . . والثاني إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ؛ ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد ، للترفيه في تلك الصور . والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذ الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام وليتفع به المصور والناسخ أبدا ، والغرض الرابع ، وهو الأقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة .

وهذا الاقتباس من ابن المقفع لازم ليوضح لنا أصناف القراء والسامعين للخرافات ، وغرض العلماء من تسطيرها ، وما يجب على القارئ والسامع بإزائها .

ميكى ماوس :

ولم يقصر الغربيون في استخدام المخترعات الحديثة في كل شئ حتى في الأدب ، فقد حاولوا إظهار الخرافات على الستار الفضى ، ونجحت المحاولة نجاحا عظيما ، ولا أظن فيكم من لم يشهد رواية الفأر الشهير « ميكى ماوس » وهو شخصية محبوبة جدا من رواد الخيالة ، رجالا ونساء ، شيئا وولدانا ، ولو كان في الوقت متسع لتحدثت كثيرا عنها وعن مخترعها « ولت ديزنى » ، وعن مقدار حب الجمهور الأوربي لها . فأكتفى بما خلفته في نفوسكم من إعجاب وسرور بمشاهدتها وبساطتها وخفة روحها .

وأختم حديثي قائلا : إن مجال القول واسع أمام الأدباء عامة والشعراء خاصة ، ولكن شعراءنا قد انصرفوا عن الجد إلى العبث وعن تسجيل أسمائهم في سجل الخلود ، إلى المدح الغث المذموم ، الذي لا تدفع إليه عاطفة ، ولا تسيغه لهأة ، ولا يؤيده الواقع . وقد كان أولى بهم أن يسيروا على نهج الشعراء الغربيين الذين أحسوا في قرارة أنفسهم بالمعانى السامية ؛ ففاضت بها أقلامهم أدبا خالدا ، وسجرا مبينا ؟

عبد الرزاق إبراهيم مميرة

التربية الإسلامية

- ٢ -

المؤلف: محمد علي مصطفى

المفتش بوزارة المعارف

وروى المؤرخون أن بعض اليهود الذين عرفوا الكتابة العربية اشتغل بتعليم صبيان المدينة في الزمن الأول .
ولما نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام زاد الاهتمام بتعليم القراءة والكتابة إذ كان لابد من نشر كتاب الله بين الناس ، وخير وسيلة لذلك معرفة القراءة والكتابة حتى يستطيع الناس قراءته وفهم ما اشتمل عليه من أصول العقائد وصنوف العبادات وسير الغابرين وأخبار الأولين ، ولهذا فادى رسول الله أسرى بدر من المشركين فمن استطاع أن يدفع الفدية قبلها منه ، ومن لم يكن له فداء أمره أن يعلم عشرة من صبيان المدينة ؛ إذ كان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ففشت الكتابة بالمدينة ، وروى البلاذري أن سبي قيسارية بلغوا أربعة آلاف رأس ، فلما بعث معاوية إلى عمر بن الخطاب أمر بهم فأنزلوا الجرف ، ثم قسمهم على يتامى الأنصار وجعل بعضهم في الكتاب والأعمال للمسلمين ، تابعت الجهود وتضافرت الهمم في نشر القراءة والكتابة بين الناس وذهب أبناء المسلمين أول الأمر إلى المدارس التي كانت لليهود فعملوا فيها معهم ، روى الأعمش قال : قال ابن مسعود : لقد أخذت القرآن من في رسول الله ﷺ وآله سبعين سورة وإن زيد بن ثابت لعلام في الكتاب له ذوابة واستمرت الحال على هذا النحو حتى نشأت المساجد والمكاتب في بعض الجهات وزادت حركة

التعليم نشاطا، روى الواقدي أن عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجرا إلى المدينة مع مصعب بن عمير رضى الله عنهما بعد، بدن يسير، فنزل دار القراء .
 واشتد شغف الناس بالقراءة والكتابة حتى تلبسوا المعلمين في كل ناحية وأحضروهم من الجهات النائية ليتولوا تعليم أبنائهم، روى ابن وهب عن حفص ابن ميسرة عن يونس عن ابن شهاب أن سعد بن مالك قدم برجل من العراق يعلم أبناءهم الكتابة بالمدينة ويعطونه الأجر. وحكى ابن خلكان أن الحجاج بن يوسف الثقفي وأباه كان يعلمان الصبيان بالطائف، وفيه يقول مالك بن الربيع :

فإذا عسى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن جاوزنا حفير زياد
 فلولابنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد زياد
 زمان هو العبد المقر بذله يراوح صبيان القرى ويقادي
 وكان لقب الحجاج كليا وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
 رغي له فلكه ماترى وآخر كالقمر الازهر

ومن المعروف أن الحجاج مات حوالى سنة ٩٥ هـ بعد أن ولى العراق عشرين سنة والحجاز من قبل ثلاث سنين وبعد أن كان رئيس الشرطة مدة من الزمن، وكان أبوه قد سبقه إلى هذه الصناعة، وروى سفيان بن عيينة أن الضحاك ابن مزاحم وعبد الله بن الحارث كانا يعلمان ولا يأخذان أجرا على التعليم. ومن اشتغل بالتعليم في صدر الإسلام أيضا أبو بكر الكلبى، وأبو عبد الرحمن السلمي ومعبد الجهني، وقيس بن سعد، وعطاء بن أبي رباح، والكميت بن زيد الشاعر إذ كان يعلم الصبيان بمسجد الكوفة .

عن الأصمعي عن خلف الأحمر قال : رأيت الكميت في مسجد الكوفة يعلم الصبيان . ومن المعلمين الذين وردت أسماءهم علقمة بن أبى علقمة مولى عائشة رضى الله عنها، روى عن مالك بن أنس : وكان له مكتب يعلم فيه العربية والنحو والغروض ومات في خلافة المنصور .

والظاهر أن حركة تعليم القراءة والكتابة كانت موقفة، حتى اطمأن العرب إلى أنفسهم، وشرعوا في ضبط أعمالهم، وتسجيل أعطياتهم، وإنشاء ديوانهم والاستعانة بالكتاب منهم في ذلك. وأول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية عمر. عن الشعبي قال: لما همَّ عمر بن الخطاب في سنة ٢٠ هـ بتدوين الدواوين دعا بمخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم فأمرهما أن يكتبا الناس على منازلهم ففعلوا. وأما ديوان الشام وديوان السواد وسائر العراق فقد بقي أولهما بالرومية وثانيهما بالفارسية حتى « جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سداجة الأمية إلى حذق الكتابة، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحساب » فأمر عبد الملك سليمان ابن سعد أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة، ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله، وأتى به عبد الملك فدعا بسر جون كاتبه فعرض ذلك عليه فغمه وخرج من عند عبد الملك وهو مكتئب حزين فلقبه قوم من كتاب الروم فقال لهم: اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم.

وأما ديوان السواد وسائر العراق فقد كان بالفارسية حتى ولى الحجاج العراق فكتب له زاذان فروخ بالفارسية إلى أن قتل زاذان أيام عبد الرحمن ابن الأشعث فاستكتب الحجاج صالح بن عبد الرحمن مكانه وكان صالح هذا يكتب العربية والفارسية التي لقتها عن زاذان ولكن الحجاج أمره أن ينقل الديوان إلى العربية ففعل حتى قال عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد: « لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب ».

نما تقدم وأشباهه نعلم أن حركة التعليم في صدر الإسلام كانت حركة

جدية بعثها الصادق الأمين والراشدون من بعده وخلفاء بني أمية من بعدهم على الرغم مما كان يشغل بالهم من فتوح البلدان ونشر الدين في الآفاق . وليس من الحق في شيء ما يذهب إليه بعض المؤرخين من أن الدولة الأموية لم توازر الحركة العلمية ولم تشجع على نشر العلم فقد كان معاوية من الكتاب لرسول الله ﷺ ومن رواة حديثه، وكان يزيد ابنه من الشعراء المعدودين في زمنه ، وكان عبد الملك بن مروان قبل الخلافة أحد فقهاء المدينة . قال الشعبي : « ما ذا كرت أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان فإني ماذا كرت حديثا إلا زادني فيه، ولا شعرا إلا زادني فيه ، وإن تشجيعهم للعلم والعلماء قد اتسع مداه حتى لقد نقلت في زمنهم الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية .

التعليم الاسلامي

بعث رسول الله ﷺ معلما لينشر دين الله بين الناس ويعلمهم مكارم الاخلاق ويهديهم إلى طريق الحق وإلى صراط مستقيم ويرشدهم إلى سعادة العاجلة والآجلة وهو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فصعد ﷺ بالامر ولقي في سبيل الدعوة لدين الله مالتى من بلاء ومحنة وكان من أمره مع قريش ما كان . هاجر من مكة إلى المدينة فكان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون إليه في كل وقت مع ما كانوا عليه من ضنك العيش وقلة القوت، فإذا سئل عليه الصلاة والسلام عن مسألة أو حكم بحكم أو أمر بشيء أو فعل شيئا وعاه من حضر عنده من الصحابة ، على أن نفرا من أصحابه يبلغ عددهم الأربعين كانوا يجتمعون إليه بمكة قبل الجهر بالدعوة في دار الأرقم فيتولى تعليمهم ، وكان للنساء يوم خاص يتولى تعليمهن فيه ؛ فقد اعتنق الإسلام كثير منهن .

وقد كان رسول الله ﷺ يجلس في مسجد المدينة ويدرس للناس العلم في المسائل المختلفة. يدلنا على ذلك ما روى عن أبي واقد الليثي قال: بينما رسول الله

ﷺ جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد . قال فوقما على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفه وأما الثالث فأدبر ذاهبا فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم عن النهر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه .

وكانت مجالس رسول الله ﷺ للتعليم متنازعة بين الرجال والنساء . ففي البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال النساء للنبي : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن
وروى أن أبا الدرداء كان يجلس للناس في المسجد فيعلمهم القرآن وما ينبغي أن يراعى في قراءته .

وكان ابن عباس رضى الله عنه يلقي المحاضرات على عدد عظيم من طالبي العلم، فكان يوم للتفسير، ويوم للفقهاء، ويوم للنحو، ويوم لتاريخ العرب، ويوم للشعراء. ولعل هذا أول جدول دراسي في الإسلام وقد تكون هذه أول محاضرات إسلامية أُلقيت في الهواء الطلق . ثم حل محل هذا النوع دراسة منظمة للعلوم الإسلامية بين جدران المساجد .

واتبع أصحاب رسول الله ﷺ سنته فكانوا يعلمون الناس العلم ويفقهونهم في الدين ويفتونهم في المسائل التي يستفتونهم فيها ، وزاول الفتيان في زمن النبي ﷺ من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة ابن اليمان وزيد بن ثابت وأبو الدرداء السابق الذكر وأبو موسى الأشعري وسلمان الفارسي فكانوا الطبقة الأولى من المعلمين بعد رسول الله ﷺ ولقد كان بعض هؤلاء الصحابة يعرف إلى جانب اللغة العربية

لغة أخرى كالعبرية والفارسية ويلم بشيء من ثقافات الأمم المجاورة للعرب ودياناتهم كسلمان الفارسي وزيد بن ثابت وسواهما واستعان رسول الله ﷺ ببعض أصحابه على نشر العلم في أنحاء جزيرة العرب فكان كلما فتحت الجيوش الإسلامية بلدا بعث إلى أهله من يفقههم في الدين ويدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فقد اجتمعوا على أن رسول الله ﷺ ولى زياد بن لبيد حضرموت ، وبعث أبا موسى الأشعري ومعاذا إلى اليمن^(١) وولى نجران عمر بن حزم الأنصاري . هذا إلى ما كان يقوم به عليه الصلاة والسلام من إرساله أصحابه إلى الجهات المختلفة لدعوة أهلها إلى الإسلام ؛ فقد ورد أنه لما كانت سنة ٨ هـ بعث رسول الله ﷺ أبا زيد الأنصاري وعمر بن العاص إلى ابني الجلندي بكتاب منه يدعوهم فيه إلى الإسلام وقال : إن أجاب القوم إلى الشهادة فعمرو الأمير ، وأبو زيد على الصلاة وأخذوا الإسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن . وجرى الخلفاء الراشدون على سنته من بعده فأرسل أبو بكر معاذ بن جبل وأبا الدرداء إلى الشام ، وبعث عمر إلى أهل الكوفة : عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حنيف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال وأمره أن يعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين^(٢) ، واشتدت رغبة الصحابة في الدعوة لدين

(١) كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر . قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذا وعبادة وأبا الدرداء ، فأقام عبادة بفلسطين حتى مات بالرملة سنة ٣٤ هـ « الاصابة »

(٢) ففي البخاري عن أبي بردة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن قال : وبعث كل واحد منهما على خلاف ، قال : واليمن غلافان ، ثم قال : ييرا ولا تعمرا وبشرا ولا تفمرا .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب فإذا جنتهم فادعهم إلى أن يشهدوا ألا إله إلا الله وأنت محمد رسول الله . (الحديث)

الله؛ فنزل أبو موسى الأشعري وأنس بن مالك بالبصرة، وذهب إلى مصر عبد الله بن عمرو بن العاص وروى أهلها عنه أكثر من مائة حديث. ومن رحل إلى مصر جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري وكان له حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه فيها العلم، ثم قدم مصر على عبد الله بن أنيس يسأله عن حديث القصاص. ولأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث ولا بأس هنا أن نورد حديث رحلته إلى مصر لتعرف مبلغ شغف الناس بالعلم وطلبهم له مهما كلفهم من جهد ومشقة: عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كان عبد الله بن أنيس الجهني يحدث عن رسول الله ﷺ حديثاً في القصاص قال جابر: فخرجت إلى السوق فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلاً ثم سرت إليه شهراً فلما قدمت عليه مصر سألت عنه حتى وقفت ببابه فقال: ما جاء بك يا أخي؟ قلت: حديث يتحدث به عن رسول الله ﷺ في القصاص لم يبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك أردت أن أسمعه منك قبل أن تموت أو أموت^(١).

وأرسل عمر بن عبدالعزيز نافعاً فقيه أهل المدينة إلى مصر ليعلم أهلها السنن وجثلا الرعينى إلى أهل المغرب ليقرئهم.

ولا يفوتنا هنا أن ننوه برجلين من أبطال الإسلام وأهل الرأي في المسلمين وهما: عبد الله بن مسعود وكان من ثقافة الرواة وأصحاب العلم بالقرآن وحديث رسول الله حتى كان يسمى البحر لسعة علمه، وعلى بن أبي طالب وكان متمكناً من علوم الدين وفنون اللغة والأدب والتاريخ، ثبتا في علوم القرآن حتى أخرج ابن سعد عن علي قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت. وقال: قال علي: سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت لبيل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل. ومن المعروف أن

(١) وذكر أبو عمرو الكندي أن أبا سعيد عثمان بن عتيق أول من رحل من أهل مصر إلى العراق في طلب الحديث، ثم كثرت الرحل إلى الآفاق. وكثيراً ما كان الصحابة والتابعون يرحلون في طلب الحديث الواحد الأيام الكثيرة.

ابن أبي طالب هو أول من وضع أصول النحو . روى عن أبي الأسود قال: دخلت على أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه فرأيت مطرقاً مفكراً فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت بيلدكم هذا لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية. فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة. ثم أتيت بعد ثلاث فألقي إلى صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم: الكلام كله (كله) اسم وفعل وحرف الخ ..

ولقد أخلص الصحابة والتابعون لدينهم القويم وجدوا في نشره ووقفوا أنفسهم لخدمته وتنافسوا في ذلك حتى قامت في كثير من البلاد حركة فكرية عظيمة جعلتها مركز الثقافة الإسلامية ومقر الآداب العربية وموئل طلاب العلم ، ومن بين تلك البلاد مكة المكرمة ومدينة الرسول ﷺ والبصرة والكوفة وحمص ودمشق ومصر وغيرها.

روى أن عمر بن عبد العزيز بعثه أبوه إلى المدينة يتأدب بها فكان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع عنه العلم وكذلك كان عبد الملك بن مروان يطلب العلم بالمدينة حتى صار أحد فقهاءها وأصحاب الرأي فيها . وعلى هذا النحو انتشر العلم في الأقطار العربية ووجد طريقه إلى القلوب فأثار البصائر ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء .

محمد علي مصطفى

من الأدب الأندلسي

خالد الأندلس

له سنان عبر العظيم على قنارى

فى الهزيع الثالث من الليل أو فى قرابته كان كل ماعلى وجه مدينة
« البشكنس (١) » خادرا سادرا لاتسمع فيه نامة، ولا تحس حركة؛ إذ لعب
الكرى بمعاقد الأجفان، وأخذ الوسن كل إنسان، ولبست تلك المدينة الحافلة
سراويل السبات، وطافت بأهلها أطراف من المنى أو الجوى، وأملت بحلومهم
الأحلام والرؤى، فهذا صب أضناه الوجد، وبرح به الهوى، لم يدرك من
حييته طلبته، ولم ينل منها رغيته، فلجأ إلى الحلم يستعديه، ولاذ بالخيال يستدنيه
وكأنى به ينشد:

إن كان واديك ممنوعا فوعدنا وادى الكرى فلعلى فيه ألقاك
فهو يتخيل فى رقدة السحر حلو السمر، وينظر بعين طيفه مالكة لبه،
وأسرة قلبه أسيرة لديه، قائمة بين يديه، يستدنيها فتلى اختيارا، ويأمرها فتأمر
اتمارا، قهرته فى وضح اللياح، فلكها فى غسق الدجى، واسترقته يقظ الحواس
فاستولى عليها لا يأبه يقظة الحراس، وتطول به الأخيلة فيتمنى ليلا وقفت
نجومه، أو صباحا ضلت ذكاؤه، وكأنى به ينشد:

(١) اسم إحدى مدن بلاد الأندلس.

ورداء ليل بات فيه معانق طيف ألم لظبية الوعاء
 تجمعت بين رضابه وشرابه وشربت من ريق ومن صهبا
 ولثمت في ظلماء ليلة وفرة شفقا هناك لوجنة حمراء
 والليل مشمط الذوائب كبرة خرف يدب على عصا الجوزاء

وهذا ثرى جمع المال كل همه ، ولم الوفر همامة نفسه ، لا يثرث مرقده
 إلا استثمار لجينه ونضاره ، ولا يقض مضجعه إلا استزادة ضياعه وعقاره ، فهو
 طوال نهاره يجمع وي طرح ، وسدقة ليله يقدر ويصور ، حتى يثقل رأسه المقعم
 بالأفكار ، وتحمد جذوة فكره المشتعلة بالأسعار ، فيسله الكد إلى الفراش
 مستوحيا في هجعتة ما لم يتم بحثه في يقظته ، ولعله يرقب في نومه وحيا وإلهاما
 لا أحلاما وأوهاما .

وذلك بائس قذفت به الأقدار فهو نضى أسفار ، براه السرى ، وأقعد
 النوى ، يلتبس لجنبه الراحة فلا يجد مأبا يثوب إليه ، ولا نزلا ينزل فيه ،
 فأكرم بالثرى موطننا ، وأعظم بالسما ملتحقا ، يغفو وتشتد غفوته ، فيشعر
 أنه نزيل قيصر ، أو مقترش بسط كسرى وروح في سبت عميق .

تلك والدة تحتضن رضيعها وتضمه إلى صدرها ، حتى لتحبس أنها تنفى
 أن يعود إلى بطنها ؛ لأن الدنيا يضيق أفقها بعطفها عليه ، فهي لأجله في شغل
 دائم ؛ تنام إن نام وتهم متى هم ، تناجيه وتناغيه ، وتلاعبه وتداعبه ، حتى
 تغازل السنة إنسانيهما فينامان هاتئين بذلك الحب السعيد والوله الشديد .

وهل في الدنيا كلها غير هؤلاء وأشباههم ؟ فمن فيها لم يغمض جفنه ، أو
 لم يرح جنبه ؟

٢

في الدنيا غير أولئك وهؤلاء أكثر تعسا وأشد بؤسا من التعليس البائس ،
 وأعظم لوعة وأقسى حرقه من ذى الكربة اليأس ، فهذه « سعدى » ولهى

القلب، معمودة الفؤاد، مصدعة النفس، مكبوتة الآمال، ضاق بها محيط كنيسة.
«البشكنس» فصعدت في سمائها تاجي رب السموات، وتساهر مصباحها
والثريات، تشكو إليها همها؛ في عبارات العبرات أسطارها، وكلمات الكلوم
آثارها، فمن حديثها الملتاع ونجواها الزافرة :

ويحي ! ويحي ! من هذا الذي يزعمونه خالد الأندلس، وسيف الإسلام،
وقاهر الشرك، ومعلى كلمة الحق، وأخيرا عاهل يعرب وتميم، وبلى على
مطأطىء جباه القياصرة، ومحطم كتاب الجبابرة، ومرهب العتاة الطغاة،
والضارب على يد كل معتد أثيم. وبلى عليه لأنه يزعم عنه أنه ثل العروش، وفل
الجوش، بينا أولئك الذين دانوا لسلطانهم يأسرون امرأة لاجريدها إلا انتسابها
إليه، ولا خطيئة سوى رسوخ إيمانها، إنه الآن يسعد بالنوم في قصر «الزاهرة»،
على فرش الخز والديباج، وسرر الفضة والذهب، بين حور القيان، وغواني النوتان،
يسقى كنوس النعماء دهقا، ويكرع أكواب السراء غدقا، يصبح فيصطبغ إن
شاء بنجر الجنان، وإلا فينت الحان، ويسى فيغتبق بابتة العنب أو بسلافة
الأدب، بين أخدان خافوه فكتموه حقيقة أمته، ورهبوه خفدعوه في شئون
رعيته، حتى مدواله في الخيال، فأنشد معتزا دون عزة، مفتخرا بغير مفخرة :

رमित بنفسى هول كل عزيمة وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبي إلا جنان مشيع وأسر خطى وأبيض باتر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة وفاخرت حتى لم أجد من يفاخر
وإني لزجاء الجيوش إلى الوغى أسود تلاقيا أسود خوارد

أين هو من حفيد العباس «المتعصم» ؟ ذلك الذى قوض أركان دولة،
وأدال تاريخ أمة؛ لأنه أنهى إليه أن امرأة هاشمية وقعت في أسر «توفيل»
ملك الروم، فكانت تنادى «وامعتصاه» خالف مشيريه، وما أبه أقوال منجميه،
وسار في فيلق جرار يخرب وينهب، ويقتل ويسبي حتى بلغ مكان أسيرته، فضيق

على المدينة الخناق، وأدنى سادتها إلى السياق ، فتحدثت بنجدته الركبان، وسارت
بمروته الأمثال ، والله أبو تمام إذ قال :

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب
يارب حرباء لما اجتث دابرهم طابت ، ولو ضمخت بالمسك لم تطب
ومغضب رجعت بيض السيوف به حى الرضا عن رداهم ميت الغضب
خليفة الله : جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب
بمثل هذه العزة القاهرة تسمو الأمم . وعلى تلك النخوة القاسرة تعلو الدول ،
لا بذلك الذى يترك المسئلة الحيمان ، الراسخة العقيدة القوية الإيمان ، بين
غوارد الذوبان ، أولئك الألى طغى عليهم الجحود واستولى، وراى على عقولهم
الكنود واستعلى ، يتركها سليية الحربة فى كنيسة لا تسمع فيها إلا لغو القسوس
ودق النواقيس ، تعلن لاعن التوحيد بل عن التثليث ، فتصم منى أذنى ، فإذا
دعانى داعى الصلاة أرفهها لتسمع من يعلو باسم الله صوته فلا أكاد أنخيل لما
أتمنى صدى .

أى فخر لهذا الذى يلقب نفسه المنصور؟ وهو من النصر — ولو ملك الخافقين،
وخفق لواؤه على الأفاميين — جد بعيد؛ لأن أسر النساء أسوأ مظاهر الخذلان،
وأنكى دلائل الطغيان

مالك يا قلابى تونبنى ، وتنعى على ثورة جنائى ، وما يجيش به وجدانى فيجرى
به لسانى ؟ إنك لتحدث أن المنصور لم يصل إليه بحمل شأنى بل مفصله. ولو أنه
ألم به لتارت لكرامته ثورته، ولحفزته لخلاصى همته ، ولنشبت الحرب الزبون،
ولقطع إلى المهامه الفحيح . بكل سمح لاخوار ولا طليح . أليس المنصور قد
أشعل تسعا وخمسين موقعة للحرب لم يسقط له فيها علم ، ولا قل له فى جنباتها
صارم خدم ؟ وما على يا قلابى أن يكون ما تحدثنى به صحيحا إذا قلت ما قلت

وهأنذا في الإسار نائية عن الوطن . آه ! لو أن أسرى في غير هذه البقعة ، وبين غير أولئك الطعام لهان الخطب ويسر الكرب ، ولدافعت جناتي أن تجول به هذه الخواطر ، وعقدت لساني أن يدور بتلك القوارص ، ولكن أنى لي الصبر ؟ وأنا أصبح في وصب ، وأمسى إلى نصب ؛ أستقبل الصباح القسوس والرهبان ، يلوون ألسنتهم بالزور والبهتان ، فأصحو على القذى ، وأغفو على جمر الغضى ، حسبي يا قلبي ولا تدرع بالصبر ولا تجمل بالعزاء .

٣

ذا طرف من حديث تلك المرأة الثكلى ، وأى ثكل أشد من ثكل الحرية ؟ وأى أسى أمض من أسى الإسار ؟ وإنها لتناجي بارئها تارة وتحدث إلى نفسها أخرى ، بما يعتلج في فؤادها من تلك اللوعة المعضبة والوحدة المضنية ؛ إذ أسرت إليها إحدى الراهبات التقيات اللائي رثين لحزنها ، وثارن في نفوسهن من أجل بؤسها عاطفة الإنسانية وتناسين العقائد الدينية — أسرت إليها بأن أحد أعوان المنصور وقد متفقدا مستطلعا ، ولا بد من زيارته تلك الكنيسة ، فهي أعظم كنائس «البشكنس» لما فيها من تماثيل وتماثيل ، ونصب وتصاوير ، بما يثير الحاذق الصانع ، ويفتن كل مخترع فنان ، ومن لم يمتع طرفه بزيارة تلك الكنيسة فإنه لم يبر من آثار حضارتنا شيئا ، نحقق لهذا الخبر المبالغت قلب «سعدى» وعلمت أن الله سبحانه — قد استجاب دعواتها ، فلبثت تعد الساعات ، وتترجم الأيام سنرات ، حتى رأت الزينات تقام ، وأقواس النصر تنصب ، والأعلام فرق الدور تخفق ، والطرق تعج بالعاملين ، فعلمت أن نائب مليكها في طريقه إلى الكنيسة ، فزورت في نفسها كلاما تقول ، فلما وصل تريثت حتى شاهد الآثار والتحف ، وتأمل في العاديات والطرف ، ثم تقدمت إليه في رباطة جأش ، ففصلت من أمرها المجمل ، فاندفعت في الحديث متدفقة لا يقف في سبيلها شيء ، فقالت من حديثها :

إن إساري أنا التي تربطني بالمنصور بن أبي عامر أكثر من آصرة ، وتصلني

بأسبابه غير رابطة لأكبر الخزي وأخزي العار ، فأين هذه النجدة التي ينسبونها إليه ، والهمة التي يعتونه بها ؟ أين هي حتى تقع مسئلة مثلي في شرك هؤلاء المارقين ؟ أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسها ، ويتمتع بلبوس العاقبة وقد نصت لبوسها ؟ أأست أساوى عند الله أم المنصور نفسه ؟ فلقد قال أمين هذه الأمة « لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » فهل لو أن الحبيسة أمه أو أخته أيغفل أمرها ويلهو بملاذه عنها ؟ فتبقى بتلك الكنيسة محبسه ، وبكل ذل وصغار ملبسه .

أيها السفير الأمين : إني لأناشدك الله ذا العزة ، وأستحلفك بالمروءة والنجدة إلا أظهرت المليك على أمرى « فلعل له عذرا ونحن نلوم » ولا يخالجنى ريب في أنه سيجيب داعي النعرة العربية ، ويلبي نداء العزة اليعربية ، فيسعى لخلاص قائما وقاعدا ، رابضا وواثبا ، في سدة الليل وومضة الصبح ، فما كان وهو من سلالة الانجاد من يعرب ، وله خثولة الانجاد من تميم بالذي يرضى لى الأصفاذ ، أو يترث في رد حريتي ، وأنا في هاتيك الأغلال . فعاهدها الرسول على أن يدلى إلى المنصور بشكواها ، وأنها لا بد ناجية من القوم الظالمين .

٤

أنهى الرسول الزيارة بعد أن طوف في ذلك الإقليم الزاخر بالخيرات الملية بالعاديات — ماحلاله التطويق ، فلما عاد إلى المنصور وصف له المدينة ورياضها ، والأرباض وغياضها ، والملك وجنده ، والحكم ونظمه ، والقلاع والحصون ، والمسارب والسدود ، والحيوان والطير ، وكل سائر وسارب ، والملك يصغى إليه حتى أتم جميع ما لديه ، فسأله مولاه قائلا : « هل وقفت هناك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ما ذكرته ؟ » فقال الرسول : ليس لدى يامولاي من الحديث ما يبعث في النفس غبطة أو يرسل إلى القلب مسرة غير ما قدمت ، فقال المنصور : بل أريد الحقائق مجردة ، وسيان عندي بعد ذلك أن

تسوء أو تسر، فإني على هذا العرش مسئول عن رفاهة شعبي، واستطلاع
شؤنه: فيما جذلت وزادني جذلي سعيًا في الخير؛ وإما وثبت لدفع الضرر.
فقال الرسول وقد بعث المالك في نفسه الجرأة وأحيا فيه الحية: وقفت يا مولاي في
تجوالي على امرأة أسيرة في إحدى كنائس «البشكناس» وقد أفضت إلى
بآلامها وأودعني آملها، فقطب المنصور أساريره، وهلات الحفيظة عطفه،
وقال: كان عليك البدم بقص أمرها فهو آثر عندي من جميع ما قصصت، واشتد
في تأنيبه لعرضه عليه تافه الأمر دون جليله، وقال: ويلي من حساب الله يوم
تعرض عليه أمرها! أأهنا وتشقى؟ أسعد وتؤذي؟ ثم أخذ للجهاد من فوره،
وعرض من أجناد في نجده وغوره، وعبا كل من يستطيع للسلاح حملاً، ثم
لبس لأمته وأعد عدته، «وأصبح غازياً على سرجه، مباهاً مروان يوم مرجه»
وسار يقتحم الغور والنجد، ويطوى السهل والوعر؛ حتى وصل بعد يده وسلبه
إلى المدينة «ووافي ابن شائجة في جمعه، فأخذت مهابته يبصره وسمعه، فبادر
بالكتاب إليه يتعرف ما للجلية؟ ويحلف له بأعظم آية أنه ماجني ذنبا، ولا
جفا عن مضجع الطاعة جنباً» فغنف إرساله وقال لهم: كيف لم ينقض موثقاً
«وقد عاهدني ألا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور، ولو حملته في حواصلها
النسور» وقد وصل إلى نأبأ بنيء أنه خان إذ عاهد، وخاس حين وعد؛ إذ
أحل نفسه أن يبقى في أسره امرأة مسلمة، وجعل مثواها إحدى كنائسه: إشعاراً
لها بالذلة. فوالله رب محمد لا كتسحن أرضه وأقوضن ملكه، فقال أحد الرسل:
مولاي، لقد عقدنا لك لواء السمع والطاعة، فغفرا لذنوبك لم تتبينه وغفوا عن
جرم لم تتعمده، فقد دخلنا في الطاعة مسلمين، ورضينا بعدالة حكمك طائعين،
فليس من عدلك الذي ملأ الآفاق أن تؤخذ بجريرة لم تتعمد اقترافها، وقد
أقررنا بالخطيئة، فيما عفوت وإما اقتصصت، ونحن في الجالين أرقاء عدلك،
وموالى حكمك، وإن الملك في سبيل مرضاتك أمر بالكنيسة المشثومة أن

تهدم ، وما زال ذلك شأنهم يتضرعون متوسلين ، ويتوسلون متضرعين ، يبدأ
أحدهم الوسيلة حتى تطير صراجه نظرات الملك الملتبهة فيسعه غيره . وهكذا
دواليك يستندون طولهم ، ويستجئون عطفه ، حتى صدرت عنه كلمة العفو ، فردت
إلى نفوسهم طمأنينتها ، وعاد إلى سيدهم ذماؤه .

أما المنصور فقد غير من حالها ، وعاد بسواكب نعماء على جذعها وإحبالها ،
وخملها إلى قومها ، وكحلها بما كان شرد من نومها ، واستحق منها أن تنشده :
تلاقت عليه من تميم ويعرب شمس تلالا في العلا وتدور
من الحميريين الذين أكفهم سحائب تهمل بالندى وبحورم

عبد العظيم على فناوى

فنون الأدب

منابعها وبواعثها

للمؤلف عبد الحميد حسن

للعقول جولات في شؤون الحياة، وللنفوس تموجات تنم عن دخائنها،
وللفطرة الإنسانية نزوع إلى تصوير ألوان الحياة، وميل إلى الإفصاح عما يحتاج
النفوس؛ مما ينشأ عن الدوافع الباطنة، أو عن المؤثرات التي تنجم عن البيئة
الطبيعية أو الاجتماعية،

فهذا الميدان الفسيح الأرجاء من التجارب الفردية ومظاهر المجتمع، إذا
ما كانت اللغة وسيلة لرسمه وأداة للتعبير عنه — هو ميدان الأدب، وما ينتجه
العقل في هذا ويصوغه في أسلوب جيد من النثر أو النظم هو الأدب.

فالأدب: هو الخالص الصافي من تجارب الحياة، والواضح الصادق من ألوان
النفوس؛ يصاغ في صورة رائعة من الأساليب الشعرية أو النثرية، فيكون للنفوس
خير غذاء، وللعقول صافلا، وللهمم شاحدا، وللبيول الإنسانية أقوى حافز إلى
كريم الشيم.

وهو من الفنون الجميلة التي تزدهر بها الحياة وتنشط النفوس، وإن أعلام
البيان في الأمم هم مصاييح هديها، وضوء حياتها، ومرآة ماضيها وحاضرها،
وهم الذين يوقظون نبيل العواطف، ويحفزون الهمم إلى جلائل الأعمال ويصورون

مايجول بالنفوس من خواطر ، وماتكن القلوب من ميول طامحة أو جاححة ،
معوجة أو قويمة .

ولكل أمة راقية أدب ماثور ، تدل ألوانه وضروبه على حظها من الثقافة
ونصيبتها من الحياة العقلية والاجتماعية والخلقية ، وتتم اتجاهاته عن طبعها وروحها
العامة . ولا تزال آداب الأمم الراقية من المناهل العذبة التي ترتشف منها العقول
رحيقا سائغا .

وحظ البيئات والشعوب والأفراد من الأدب يختلف صعودا وهبوطاً
وقوة وضعفا ، ونباهة وخمولا ، فليست جميع البيئات موطناً خصياً للأدب
وللآداب . وللإنتاج الأدبي ، وليست جميع الشعوب ذات حظ من القرائح
الخصبة . وللأهم في حياتها مراحل نهوض وانتعاش ، وعمسور ركود وفنور
عقلي وحيوي ، والأدب يسير في الغالب تبعا لذلك ؛ فهو وليد البيئة ، ونتيجة
القرائح ، وارتباطه وثيق بثقافة الأمة وانتعاش حياتها ، وماتمتع به من حرية
ورخاء ، وبما لأفرادها من خلال تميل بهم إلى الطموح أو إلى الاستسلام .

وسنعرض في كلمتنا إلى أثر العوامل المختلفة في فنون الأدب لنعرف البواعث
التي تتجه بالآديب إلى فن من فنون القول ، ولنتبين الأسباب التي تجعله يجتهد في أحد
فنون البيان ، ولتعرف المعين الذي ينبع منه هذا ، أمن داخل النفس أم يأملاء
من البيئة وبوحي من العوامل الخارجية ؟ وهل كان ذلك تقليدا أو ابتكارا ،
طبعا أو تكلفا ؟

سنمر بهذه العوامل والبواعث لنعرف الصلة بين الإنتاج الأدبي ومنابعه ؛
ليكون لنا من هذا عون على النقد والموازنة بين مختلف القول ومتباين المنازع .



لأجدال في أن الأدب صورة للنفس وللجمتمع ، وأثر من آثارهما ، أو
أنه يجب أن يكون كذلك ، إلا إذا افترضنا أن الآديب سيتجرد عن سجيته

ويتلون بغير شيمته، ويتغلب تطبعه على طبعه، ويخرج على قوانين المجتمع فلا يلبى دواعيها، ولا يستجيب لمؤثراتها.

ولا نقول: إن هذا الافتراض بعيد الحدوث، بل إن الواقع يحتم علينا التسليم به، فإن من الكتاب والشعراء فريقا يقولون بالسنتهم مافى نفوس غيرهم، وينسجون المعاني على منوال من سبقهم أو عاصرهم، وينتحلون من الأخيلة والأساليب ما لا يفضل لهم فيه إلا النقل والتخير والنسطير.

على أن هذا لا ينافي أن الأدب إنما هو صورة لنفس بشرية وليئة إنسانية، وإن كانت هذه النفس هي نفس غير نفس القائل، وهذه البيئة قد تخيرت من لم يتأثر بها مستودعا لإيحائها. بل إن هذا النقل والأساليب التقليدية إذا فشت في عصر كانت ظاهرة تدل على نفوس أدبائه وكتابه وشعرائه، فإن قاعدة ارتباط الأدب بالفرد والمجتمع قاعدة لا ينقضها ما تنفسي الأدب من تصنع في أساليبه وتقليد في صورته ومعانيه، يبعده عن التعبير الصادق عن دخائل النفوس، وما يلم بها من مؤثرات.

فالبواعث التي تنشأ عنها فنون الأدب ترجع إلى الفرد وإلى البيئة بنوعيتها الطبيعية والاجتماعية.

أما الفرد فتتأزعه عوامل من سرور وألم، وهدوء وغضب، وجموح وطموح، وأورسا واستسلام، وقد يكون ناهيا أو خاملا، مثقفا أو جاهلا، ولكل هذا أثره في إنتاجه العقلي، وفي تأثره أو تأثيره فيما حوله، فإنما إذا بحثنا في أعماق النفس الإنسانية نجد ذلك القبس الروحاني الذي تختلف درجات إشعاعه وقوة إضاءته، وتلمح هذه النزعات المتوجة التي تهدأ حيناً أو دائما، وتضطرم أوتة أو تكون دائبة الصراع، وتجد العواطف نبيلها وذلها، وتبين

دخائل العقل ومدى ثقافته ، ونرى رضى الأخلاق وعنيفها ، ونلس الإرادة الطامحة والقابعة ، والنفس الراغبة والراهة . نجد كل هذه الألوان النفسية التي تندرج تحت المظاهر المعروفة في علم النفس وهي : الفكر والوجدان والإرادة . ولكل مظهر من هذه أنواع من الأدب تنشأ عنه :

(١) فالفكر تنشأ عنه فنون الأدب ذات الصبغة الفلسفية والحكم والمواظ والامثال ، وقد تكون الثقافة عوناً في هذا الصدد . وقد يكون للفطرة السليمة وللنظرات الإنسانية الصادقة خطرهما وأثرهما ، ولنا في الآثار الأدبية للعرب في العصر الجاهلي أعظم شاهد ، وإن للآعراب الذين وفدوا على الخلفاء والحكام من روائع البداهة وصائب الآراء وبانغ الحكم — ما يدل على أن الفطرة إذا صفت كان لها من الإلهام الذي توحى به مظاهر الكون ، بما لا نظفر به في كتاب مصنوع ، أو منهج دراسي مخطوط أو مطبوع .

(٢) والإرادة تنشأ عنها أنواع الأدب ذات الصلة بالرغبة والرهبة والشجاعة والجن : كالحماسة والاستجداء والاعتذار وكألوان القول الممزوجة بالملق والذلة .

وقد يشاب بعض ما ينشأ عن ضعف النفس من هذه الأنواع بعزة كامنة وقوة تبدو من وراء ستار ، وقد تلبح في الأدب قوة نفس ظاهرة متكلفة ، ولكن الضعف والملق يظهران من خلالها ، وهذا إنما يكون في العصور التي يغمرها النصح والتكلف في مظاهر الحياة ، فيبعد أدباؤها عن صريح القول ، ويلجئون إلى المداجاة فلا يكون أدبهم فطرياً سليماً .

(٣) والوجدان هو الوتر الحساس والمورد العذب لكثير من فنون الأدب ، ومنه تنشعب العواطف النبيلة أو الوضيعة ، وعنه تنشأ المعاني الموسيقية والأغراض المرحية كالغزل والنسيب والتشبيب والمجون والفكاهات والشعر الغنائي وما يتصل بذلك . ويزداد هذا الجانب نشاطاً بما في البيئة من عوامل

السرور، ومظاهر البهجة، وبانتشار الأمن والرخاء. على أن للتكوين الفطري في هذا شأنًا؛ فن الناس من يغلب عليهم الاكتئاب والتشاؤم والنظر إلى الحياة بمنظار مظلم، ومنهم من يميل إلى مباهج الحياة ويرى الأشياء من نواحيها السارة المرحية، ومنهم الحاد المزاج السريع الانفعال، ومنهم النابت الجأش الهادي الجنان. (٤) ومن البواعث ذات الشأن في فنون الأدب الخيال؛ فقد يمتزج بالتفكير وبالوجدان فيكون له أثر في ألوان القول، وشأن في بعض فنون الأدب: كالأدب التمثيلي الذي يمتزج فيه عناصر الموسيقى والغناء، وكالوصف المقرون بدقيق التشبيه ورائع الاستعارات، وكالقصص والروايات، كالتمدح بالجمال الطبيعي أو النفسي، وينشأ عن ذلك أيضًا الفخر والعجب والرائاء وغير ذلك.



يتجلى لنا مما تقدم أن للجو النفسي ضروبًا من الألوان، وأنواعًا من التقلبات، وهو في هذا أشبه بالجو الطبيعي في اختلافه — على مرور أيام العام — حرارة وبرودة، وجفافا ورطوبة، فتارة يهب النسيم العليل، وأخرى تعصف الأعاصير، وطورا يمتزج الهواء بشذا الورد والرياحين فينعش القلوب، وطورا آخر ينقلب سموما يلفح الوجوه.

ولكل هذه التقلبات أسبابها التي ترجع إلى اختلاف الفصول، وإلى طبيعة البلاد، وما قد يكون فيها من جبال وهضاب وبحار وأنهار وإلى خصبها أو جدها، وتلبد السماء أو صفائها، كما أن لاختلاف النفوس في طبائعها أسبابا ترجع إلى الفطرة أو النشأة أو البيئة أو غير ذلك.



ومن العوامل المؤثرة في الأدب وفنونه البيئة بنوعها:

(١) فأما البيئة الطبيعية فأثرها بين فيما نراه في فنون الأدب من رقة أو ضخامة، وشدة أو لين، وسهولة أو تعقيد، فللصحراء وهدوئها، ومناظرها

الشاسعة، وفضائها الممتد إلى السماء — ما يبعث المعاني الفطرية، ويوحى بالعواطف الهادئة، وللخصب والنماء والحدائق الغناء والبساتين والأزهار والأنهار ما يبعث المرح ويثير الإعجاب بحمىل المظاهر ونضارة الطبيعة، وللجبال الشاخنة التي تطاول بغواربها أعنان السماء من الأثر ما ليس للسهول المنبسطة والوديان المخضرة.

لنكل هذه المظاهر الطبيعية آثارها في النفوس، وفيما تجرد به الفرائح من ثمر ونظم، وإنا لنلح هذا الأثر في شعر البدو وفي شعر الحضرة، وفي شعراء الصحراء وشعراء الحواضر الزاهية بالمخضر من الأشجار والجاري من الأنهار. (ب) وأما البيئة الاجتماعية فمرجعها إلى ما للامة من نظام في حياتها العامة وفي حياتها المنزلية، وإلى حظها من الحرية، وما تميل إليه من ألوان المسرات والملاهي، وإلى ما هنالك من مجتمعات وأندية لشتى أنواع النشاط، ودور للتمثيل أو الغناء أو الموسيقى، وحفلات أو شعائر في أعيادها ومواسمها، كل أولئك له في حياة الامة واتجاهها العقلي وإنتاجها الأدبي أثر.

وبعد فهذه جولة سريعة في العوامل التي تتحكم في أنواع الأدب وتوجه فنونه. ولعل أعود إلى الموضوع في فرصة أخرى إن شاء الله لتعزيده بأمثلة من الأدب العربي تفصل بمجمله، وتزيده وضوحاً.

عبد الحميد حسن

المنظر

مسرحية من ثلاثة فصول ألفها الكاتب الإنجليزي
« سدن جرندي . Sydney Grundy » وقدمت

إلى مسرح جارك « Garrick theatre »

في لندن سنة ١٨٩٠

الفصل الثالث

المنظر :

١ - نفس المنظر السابق في وقت المساء .

٢ - مسز جولدفنش تخطط في ثوب .

مسز جولدفنش: لا أستطيع أن أعرف ماذا أصاب « بن » ؟ لقد تغيرت
طباعه في هذه الأيام تغيرا تاما . إنني أعجب كيف يطلب
سجل حساب المنزل ! ولماذا أخذ رسائله الخاصة من درجي ...
هذه الرسائل التي كتبها هو إلى قبل زواجنا ؟ إن هذا التصرف
يجعلني أجزم بأنه ما أحبنى كثيرا .

(يدخل جويس ومعه ميزان)

مسز جولدفنش: ميزان ؟ أتخضر ميزانا هنا ؟ لماذا ؟

جويس : لا أعرف ياسيدي . هكذا كلفني سيدي أن أشتري ميزانا !

مسز جولدفنش: هل رجع السيد جريجوري ؟

جويس : إنه على مرعد مع السيد رتشارد « دك » فى فندق « جريفن »

وقد يتأخر هناك بعض الوقت

(تدخل شارلوت ويدعا علوة بقوائم حساب)

شارلوت : ها هي ذى قوائم الحساب

مسز جولدفنش : ماهذه ياشارلوت ؟

شارلوت : إن سيدى طلب جميع قوائم حساب المطبخ

مسز جولدفنش : أين سيدك ؟

شارلوت : فى حجرة المكتب ياسيدتى . إنه يراجع سجلات حساب

المطبخ . لست أعرف ماذا قد طرأ عليه !

مسز جولدفنش : ولا أنا !!

(يدخل جولدفنش)

جولدفنش : جويس

جويس : هاهو ذا الميزان ياسيدى .

جولدفنش : تذكر أن تزن الباعة !

جويس : أزن الباعة ؟

جولدفنش : أقصد أن تزن بضائعهم . ولكن قف سألزنها بنفسى . عندما

يأتى شىء نادى .

جويس : مشيتك ياسيدى .

(يخرج جويس وشارلوت)

مسز جولدفنش : ولم كل هذه الاستعدادات ؟

جولدفنش : لآنى أريد ذلك .

مسز جولد : بن — لا أحب أن أراك بهذا المنظار .

جولدفنش : إنه منظار جريجورى .

مسز جولد : نعم — وهذا هو السر فى أنى لا أحبه .

جولدفنش : لم أسترح إليه أنا نفسي في أول الأمر ، ولكني الآن ألقته
إنه يوافقني .

مسز جولد : إنك في هذا المنظار شخص آخر .

جولدفنش : وأنا فعلا أصبحت شخصا آخر . بالأمس كنت أبلة ، واليوم
أنا رجل عاقل .

(تدخل شارلوت)

شارلوت : أسمع ياسيدى فتعطينى مفتاح حجرة الغسيل ؟

جولدفنش : [يخرج من جيبه مجموعتين من المفاتيح] أين مفتاح حجرة الغسيل بين
هذه المفاتيح ؟ أعرف أنه مفتاح كبير ، وها هنا كثير من
المفاتيح الكبيرة !!

[يدخل جويس]

جويس : أسمع ياسيدى فتعطينى مفتاح حجرة الأغذية ؟

جولدفنش : انتظر حتى أجد مفتاح حجرة الغسيل . هاهى المفاتيح كلها —
ولكن يجب أن ترد إلى حالا . أخبر السيد برسى أنى أطلبه .

[يخرج جويس وشارلوت ومعهما المفاتيح]

مسز جولد : ألا تجد أن مفاتيح كثيرة كهذه شيء متعب ؟

جولدفنش : سأعتاد حملها .

مسز جولد : لماذا تستدعى برسى .

جولدفنش : إنه يبذر كثيرا . أريد أن أقول له كلمة أو كلمتين كي يقلع عن
هذا الإسراف .

مسز جولد : يبذر كثيرا ؟

جولدفنش : نعم — ولقد قطعت الأمل من (برسى) أيضا .

[يدخل برسى]

برسى : أبى . أنت تطلبنى ؟

جولدفنش : أرى أسمك فى سجل حساب أمك ه يناير ، برسى جنيهن
أرنى هذا المبلغ .

برسى : لا أقدر مع الأسف . لقد كان ذلك فى يناير ، ونحن الآن
فى يوليو .

جولدفنش : مرة أخرى ١٤ أبريل ، برسى : جنيها ونصف جنيه . لماذا
أخذت هذا المبلغ .

برسى : لأشياء مختلفة . إنه نفقات جيب .

جولدفنش : سأعطيك من اليوم عشرة جنيهات شهريا . وأحذر أن تنفق
أكثر مشا .

برسى : عشرة جنيهات شهريا ؟ أنتى ما كنت آخذ أكثر من خمسة .

جولدفنش : يجب أن تتعلم قيمه النقود . هذه هى الدفعة الأولى (يعطى برسى
عشرة جنيهات)

(يدخل جويس)

جويس : لقد حضر القصاب ياسيدى ومعه لحمه الصباح .

جولدفنش : آه ، لقد كنت منتظرا لذلك القصاب (يلتقط الميزان ويخرج معه
جويس)

(يسمع جريجورى متكلم قبل أن يدخل)

برسى : كم أتمنى أن يعود عمى إلى منزله فى « شيفلد » !

جريجورى : « إلى دك » ياسيدى اسكت . لا تتكلم إلى اسكت !
(يدفع دك الى داخل الحجرة ويتبعه جريجورى)

مسز جولد : ماذا قد فعل ، حتى تدفعه هذه الدفعة القاسية ؟

جريجورى : فعل ؟ لقد أساء إلى أبيه . إنه مدين ، أو كان مدينا !

دك : كنت مدينا وقد شملني والدي بعطفه ف.....

جريحوري : ألا تسكت ؟

دك : (متكا إلى برسي) لقد دفع كل الدين .

جريحوري : (إلى مير جوله) ألا تنفضان فتتركيني لحظة مع ابني ؟ (إلى

برسي) وأنت ألا تفضل أيضا فتركنا ؟

(نخرج مير جوله وبرسي)

جريحوري : أهكذا كنت مقترضا نقودا ؟ أجنبي .

دك : نعم احتجت إلى ثمانين جنيا .

جريحوري : ولماذا احتجت إلى هذا المبلغ ؟

دك : لأحقق رغباتك .

جريحوري : ماذا تقصد ؟

دك : لقد أردتني أن أكون محاميا . وقبل أن يكون المرء محاميا

هناك نفقات للامتحان لأبد من دفعها . لم أقدر على القيام بهذه

النفقات . ومن أين آتى بها وأنت تعرف كيف خرجت من

المنزل ؟ وأخيرا أخبرني شخص عن « إسحاق » المرابي .

جريحوري : الرجل الذي قابلناه في فندق « جريفن » ؟

دك : لا ، شخص آخر . لقد قبل أن يقرضني المبلغ ، وقبلت أن

أكتب له إيصالا بمبلغ مائة وعشرين جنيا .

جريحوري : ثم حل موعد استحقاق هذا الإيصال !

دك : لم أطق أن أواجه الموقف وليس لدى نقود .

جريحوري : ولماذا لم تكتب إلي ؟

دك : لقد كتبت إليك مرة : « والدي العزيز ، إنني معسر أريد بعض

شيء لا كل . وأنت أجبت »

- جريجورى : صه ! أعرف بماذا أجبت .
 دك : وحينئذ سمعت عن « اسحاق » آخر ، الشخص الذى قابلنا
 فى فندق « جريفن » والذى كان مصمما أن يذهب بى إلى
 السجن — لولم تدفع له .
 جريجورى : لن يتعلم البلهاء أبدا ... !
 دك : لقد كنت طول هذه المدة جائعا !
 جريجورى : جائعا ! وأين المال الذى أخذته من موكليك ؟ ألم تقل إن
 عندك اثنين وعشرين موكلا ؟
 دك : لقد قلت اثنين وعشرين تقريبا . إنهم أقل ... ليس لدى موكلون
 ولا قضايا مطلقا ... !!
 جريجورى : لا موكلون ولا قضايا مطلقا ! إذا على أى شيء تعيش ؟
 دك : أعيش على الخبز إذا وجدته ، وعلى الماء إذا لم أحصل على الخبز .
 جريجورى : (متائرا كثيرا) لا عجب ، إنه يبدو هزيلا جدا ... دك ..
 دك : نعم والذى .
 جريجورى : (يتكلم فى صوت مادية خنون) تعال عاتقنى آه ، كم تبدو
 هزيلا يا بنى ... !
 (يدخل برسى)
 جريجورى : برسى ! أيمكن أن أحصل على عشاء طيب وزجاجة من الشراب
 فى أى مكان ؟
 برسى : لا بد من شيء هناك فى المطبخ . أما تناولت أى عشاء ؟
 جريجورى : ليس لى . إنه لأخيك « دك »
 دك : لا تشتهى نفسى الآن أى شيء .
 جريجورى : لا بد أنك جائع .

- دك : ذلك كان منذ أسابيع . لست جائعا الآن .
- جربجورى : جائعا أو غير جائع ، أريد أن أراك تأكل يا بنى . تعالى معى .
(يخرجان)
- پرسى : بالعزة نفسه ! لقد عاش ثلاث سنوات محروما من الطعام . والآن
لا يتقدم إليه ولو أجبر عليه !
(يدخل جولدفنش)
- جولدفنش : لا أقدر أن أفهم ! لقد وزنت اللحمة فوجدتها زائدة ! لقد
غيرت القصاب ومع ذلك فلم أستطع أن أكشف حيله . هم جميعا
متشابهون ، وأنا أعرفهم !
- پرسى : لاتنس أن السيد « لوريمر » آت هذا المساء .
- جولدفنش : آه ، لقد أوشكت أن أنسى كل شىء عنه !
- پرسى : أحقا ستقرضه خمسة عشر ألف جنيه ياوالدى ؟ لقد سمعتك
تقول ذلك مرة .
- جولدفنش : نعم كان فى نيتى أن أفعل ذلك .
- پرسى : لقد فهمت أنك قد وعدته . وأنا قد أحضرت المبلغ كما أمرتنى .
- جولدفنش : لقد أحضرته ورقا ، وكنت أظن أنه حوالة
- پرسى : لم يعد لك حساب فى المصرف . إن محاميك قد صفى الحساب
أمس . لقد أعطيتنى ساطتك لأخبره أن يفعل هكذا .
- جولدفنش : حسنا فعلت يا بنى . وإنى لفرح بتصرفك . لقد كان منتظرا أن
يفشل « كرو دسن » إنه أحد زملاء الدراسة . وزملاء
الدراسة جميعهم متشابهون ، وأنا أعرفهم !
- پرسى : إن المبالغ سيكون أكثر مما نحتاج عند بيع الأسهم .
- جولدفنش : لقد أحسنت صنعا يا حضارها . إنى أعرف أولئك المحامين
وأصحاب المصارف . هم جميعا متشابهون . وأنا أعرفهم !

پرسی : لست أفهمك يا والدي في هذه الأيام الأخيرة . لقد تغيرت .
تغير كل شيء فيك حتى ملامح وجهك !
جولدفنش : كل ذلك بسبب هذا المنظار .

پرسی : أرجو أن تعد هذه الأوراق المالية [يخرج]

جولدفنش : أعدها ؟ كأنه ليس من واجبي أن أعدها ، واحد ، اثنان ،
ثلاثة كم هي جديدة ونظيفة ... ! سيدفع لي « لوريمر »
أوراقا قديمة قذرة أربعة ، خمسة ، ستة ذلك لو
يدفع لي حقا سبعة . ثمانية ولكنه لن يدفع
تسعة ، عشرة سفينته غير مؤمن عليها أحد عشرة
.... ولا شك أنها قد غرقت في جوف البحر اثنا عشر ،
ثلاثة عشر كيف أعرف أن له سفينة مطلقا ؟ هو يزعم
هذا ، ولكني لم أر هذه السفينة . إلى أين وصلت في العديالة ؟ يجب
أن أعد الأوراق من جديد واحد ، اثنان وماذا
يعمل له هذا المبلغ ؟ — لأفرض أنني تحدثت إلى جريجوري ...
لست مجبرا على مساعدة أي رجل رجل يحمل زيتا ...
لا ، يجب أن يواجه ما قدر له
[يجلس ثم يكتب]

صديق العزيز

لا أستطيع أن أفنى لك بوعدك ؛ فأقرضك خمسة عشر
ألف جنيه . إن حادثة مفاجئة تجعل هذا الأمر مستحيلا . هذا
ويؤسفني أن أفقد مسرة كبيرة كنت أجدها في موقف نبيل
كهذا .

صديقك الدائم :

بنيامين جولدفنش

[يقرأ الخطاب بصوت مسموع] إن كلمات العطف الرقيقة لا تكلف

شيئا .

(يدخل جويس)

جولدفنش : خذ هذا الخطاب إلى السيد « لوريمر » في الحال . لا تنتظر الإجابة .

جويس : ها هو ذا السيد « لوريمر » ياسيدى . خطاب لك ياسيدى « لوريمر » (يعطى جويس الخطاب للسيد لوريمر) ،

لوريمر : آه ، أعرف مضمونه . لا أحتاج إليه الآن .

جولدفنش : لا أحتاج إليه الآن ؟

لوريمر : الحمد لله ، لقد نجوت يا صديقي الكريم ، فتمنّى لي السعادة .

جولدفنش : كيف نجوت ؟

لوريمر : إن سفينتى « نجمة الصباح » قد وصلت سالمة .

جولدفنش : عزيزى لوريمر

لوريمر : لقد مرت بي أيام قاسية ! أيام هزتي ونفعتي ؛ فقد علمتني من

هم أصدقائي المخلصون . كما علمتني أنك أحسن هؤلاء الأصدقاء .

هيهات أن أنسى إنسانيتك وشفقتك .

جولدفنش : أرجو أن تناسي خطابي . لا تذكره .

لوريمر : وبرسى ، ولوسى كم سيكون ولدانا سعيدين ! إن برسى

قد طلب إلى يد « لوسى » .

جولدفنش : وأنت أخبرته أن يفعل كما تفعل فيرجو !

لوريمر : لقد كان موقفي بالأمس حرجا كما تعلم . وماذا كان يمكنني

أن أقول له في هذا الوقت غير هذا ؟ لقد قلت ذلك لاني
ما كنت أملك أن أعطي ابنتي شيئا . ولكني اليوم في مركز
يسمح لي أن أطلب منك شرف الارتباط بأسرتك .

جولدفنش : وخطابي

لوريمر : آه ، حوالتك . يجب أن أرد هالك .

(يفتح الخطاب ويقرؤه)

(يدخل جويس من الخلف ويسمع مايقال)

لوريمر : حادثة ... ؟ إذا لقد صرح ما نشرته الجرائد الليلة عن « كروودسن »

صاحب مصرفك يا صديقي ! لقد ترك البلاد ، وفر إلى الخارج .

جولدفنش : كروودسن ؟

لوريمر : ألم تعلم ؟ ولكنك تقول في خطابك ... أرجو ألا تكون

قد أودعت عنده مالا كثيرا ...

جولدفنش : عشرة آلاف جنيه .

لوريمر : عشرة آلاف جنيه ! ائذن لي دقيقة واحدة .

جولدفنش : أين أنت ذاهب ؟

لوريمر : سأرجع حالا (يسرع إلى الخارج)

جويس : (يتحدث إلى نفسه) لقد خسر عشرة آلاف جنيه ... ولهذا

قد وزن القصاب !

[يخرج جويس]

جولدفنش : أفهم كل شيء ! إن « لوريمر » يظن أنني فقدت ثروتي ، لذلك

فهو لا يرغب الآن في الزواج . طبعاً إنه لن يرجع ثانياً ! يا لله

أهكذا تكون الصداقات ؟ إنهم جميعاً متشابهون ، وأنا أعرفهم

لاشك أن جريجوري محق مرة أخرى . لقد قطعت الأمل

منهم جميعاً !!

نعم منهم جميعا إلا جريجورى . إنه لشيء عجيب حقا أن يكون
أوفى رجل أعرف هو أخى !
[تدخل مسز جولدفش]

مسز جولد : بن . ماهذا الذى يخبرنى به « جويس » ؟ أخسرت عشرين
ألف جنيه .

جولدفش : خسرت كم ؟

مسز جولد : عشرين ألف ، لقد سمعتك تخبر السيد لوريير .

جولدفش : لاشئ ، لست فى حاجة إلى كلمات عزاء منك . ألا تعرفين أنى

وجدت هذه الرسائل فى درجك ؟ [يخرج الرسائل من جيبه]

مسز جولد : ألا تزال محتفظا بها ؟ شكرا لله على أنك لم تمزقها . إنى فرحة جدا

جولدفش : إنى لم أفتحها . انظرى ماذا كتبت عليها [رسالته] .

مسز جولد : ولم لم تفتحها ؟ ألا تعلم رسائل من هذه ؟ أنظر إنها رسائلتك

جولدفش : رسائلى ؟ أهكذا تكون ؟ أنت قد احتفظت برسائلى ؟

مسز جولد : نعم . وسأظل محتفظة بها . إنها أغلى ما أملك فى الحياة !

جولدفش : ماريون . ولكن شخصا حاول أن يقبلك .

مسز جولد : نعم إنه أخوك جريجورى .

جولدفش : جريجورى ؟ مستحيل ! إنه هو الذى أخبرنى . لاشك أن هذه

ثلاثة الأثافى ! إنها نهاية المأسى . يجب أن أقطع الأمل من

جريجورى أيضا !

[يدخل برسى]

برسى : أحقا ما يخبرنى « جويس » ؟ إن هذا يفسر تلك التصرفات

الشاذة !

مسز جولد : وهذا هو السبب فى أنك طلبت المفاتيح !

رسى : وهذا هو السبب في أنك رفضت مساعدة السيد « لوريمر »
ومع ذلك فقد رتبتي عشرة جنيهات شهريا . لن آخذها . إنني
أقدر أن أشغل وأساعدك يا والدي .

رئيس جولد : وأنا أقدر أن أكون أكثر تفانيا وعناية بك في المستقبل .
تستطيع أن تبيع هداياي . الهدايا الثمينة التي كنت تقدمها لي
في المناسبات .

جولدفنش : آه ، إنها غاطة ، ولكنني سعيد ، إننا نقدر أن نركن إلى ذلك
على أي حال ، فإنه من أسرتنا ، وما كان من الأسرة لا يجرح
الكرامة .

(يدخل جويس)

جولدفنش : ماذا وراءك يا جويس ؟

جويس : أأطمئن على أنك لن تطردني ياسيدي ؟ لقد مكثت معكم زمنا
طويلا . وكنت تعاملني معاملة حسنة . لن أحتاج ولن أطلب أي
نقود منك ياسيدي وبخصوص الطعام فإني لا آكل كثيرا .

جولدفنش : جويس ولكن شخصا كان يشرب من نبيذ

جويس : نعم ياسيدي . إنه رتشارد « دك »

جولدفنش : أهو « دك » الذي شرب منه ؟ عزيزي جويس هاك مفاتيحك لتلق
معي . وسوف أدفع إليك أجرك أيضا .

جويس : شكرا ياسيدي . ولكنني لن أسألك أجرا

(يخرج جويس)

جولدفنش : كنت أظن أن جويس هو الذي يشرب نبيذ ! برسي . لكن

ذلك درسالك . لتثق في الخدم . الخدم الذين عاشوا معنا عشر

سنوات . إنهم يكونون حينئذ من الأسرة

(يدخل دك)

دك : عمى . كلمة معك .

جولدفنش : ماذا تريد أن تقول ؟

دك : إن جويس أخبرنى أنك خسرت كل ثروتك . وأنت لم تعد تملك شيئا .

جولدفنش : وماذا قال جريجورى والدك ؟

دك : قال : لقد كنت متوقفا ذلك . ثم استمر فى عثائه . ليس لدى يا عمى مال ، وكل ما عندى دبوس من الماس . إنه يساوى ستين جنيها . فهل تتكرم بأخذه ؟

جولدفنش : آه ، إنه يساوى أكثر من ذلك وجريجورى يقول :

إن الناس جميعهم متشابهون وإنه يعرفهم ؟ ليقل ما يشاء . أما نحن فيمكن أن نثق بأبناء الأخوة !

[بدخل لوريمر وابنته لوسى]

جولدفنش : أرجعت ثانيا ؟

لوريمر : عزيزى جولد . ألا تشرقى بقبول هذه الحوالة دليلا على شكرى ؟ إنها بخمسة عشر ألف جنيه . بالمبلغ الذى كنت تتوى أن تقرضنى إياه .

جولدفنش : ولكنى لم أقضك شيئا .

لوريمر : إن هذا لا يغير وجه المسألة فى شيء . لازلت أعد نفسى مدينا لك بها ، ومهما قدمت لك فهيئات أن أنى حق مروءتك .

جولدفنش : كنت أزعم أنه لن يعود ثانيا ! يا الله كم يخطئ الإنسان ! يجب أن نثق بالأصدقاء .

لوريمر : إن « لوسى » ستصبح حرة التصرف فى مالها . إذا كنت لاتقدر أن تعطى ابنك أى شيء .

- لوسى : وأستطيع أن أكون مدبرة جدا .
- جولدفنش : مدبرة ؟ إن تكون هناك حاجة لهذا . سيكون لك كل ماتطلبين .
- وسيتبقى بعد ذلك شيء لعصافيرك ،
- لوسى : آه ، إنك لم تنسها !
- جولدفنش : نعم يا « لوسى » ، لأن واحدا طار وخدعنى . صار قلبي قاسيا على الآخرين ! لقد ارتبت فى كل شيء . ارتبت فى الأصدقاء ، وفى ابن الأخ ، وفى الابن ، والزوجة — مع أنهم كانوا جميعا مخلصين — ولكنى اليوم أستطيع أن أثق فيهم جميعا إلا الأخ . يا للعجب ! أيكون الرجل المنافق والمفتري الوحيد بين من أعرفهم — هو أخى الشقيق ؟
- (يدخل جريجورى وفى يده ورقة — فيخرج نوربم)
- جريجورى : ما هذا الذى أسمع ؟ لقد جعلت من نفسك شخصا أبله !
- جولدفنش : (لنفسه) ذلك ما يقدر أن يواسينى به !
- جريجورى : هل خسرت حقا كل ثروتك ؟ إنك تستحق أن تخسرها ! إن من يأتملك على المال كمن يأتنى أى طفل ! كان ينبغى أن يكون لك وصى ! لماذا لم تبق عينك مفتوحة وجيبك مقفلا ! لماذا لم تفعل ذلك مثلى ؟ أين القلم ؟ توقع على هذه
- جولدفنش : أوقع على هذه ؟ وثيقة شركة يا جريجورى ؟
- جريجورى : إذا كنت لا تعتنى بنفسك ، فمن الواجب أن أعنى أنا بك ستكون منذ اليوم شريكى فى ثروتى ، فإنى لا أطيق أن أرى أخى فى ثياب البؤس والفاقة ! ولكن حذار أن تعود إلى تصرفات البلهاء !
- جولدفنش : هذه شفقة زائدة جريجورى يمكنك أن تقبل

زوجتي مادامت تحمل هذا القلب ! نستطيع أن نتق حتى في
الاخوة ! أما الخدم خدم المائدة ! الذين يقيدون علينا
سمكا دون أن تأكله فبحال أن نتق بهم !

جريجورى : خدم المائدة ! آه لقد ذكرتني ! هل جراد البحر « الجبرى »
سمك ؟

جولدفتش : نعم جراد البحر سمك .

جريجورى : إذا فلاذب على خادم المائدة . لقد قيد في قائمة الطعام سمكا ،
وكان يقصد « جراد البحر » هذا الذى قدمه ، وأكلت منه كثيرا .
فالذب على جهلى الاسم . وخادمك ليس بسارق .

جولدفتش : إذا يجب أن نتق في خدم المائدة أيضا !

(يدخل لوريمر)

لوريمر : أخبار جديدة . لقد خطر لى أن أشتري صحيفة ، وقد اطلعت
فيها على نبأ سار .

جولدفتش : نبأ سار ؟

لوريمر : نعم (بقرا)

« يسرنا أن نقول . إن مايشاع عن فرار « كريدوسن » ، صاحب « مصرف كريديوسن »
غير صحيح . وكل ما هناك أنه غادر لندن ليعتنى بأعمال المصرف . ومركزه المالى
كما هو ثابت جدا ، ويستطيع أن يدفع فى أى وقت كل ماله للودعين كاملا »

جولدفتش : إن هذه أخبار سارة لك

جولدفتش : لى ؟ إنها أخبار لاتهمنى ولاتتعلق بى .

لوريمر : ألم تقل إن لك عنده عشرة آلاف جنيه ؟

جولدفتش : كان ذلك أمس . ولكنى سحبتها منه من قبل .

لوريمر : إذا فأنت غنى كما كنت دائما ؟

جولدفنش : نعم أغنى من حيث العلم بمدى صداقتك واحسانك ووفائك !
أصدقائي : إني أرد إليكم مساعداتكم بمثل الروح التي قدمت إلى
بها . لن أنسى هذه المساعدات أبدا . إن الدنيا ليست من
الرداءة بمقدار ما كنت أفدر أخيرا .

[تدخل شارلوت]

شارلوت : منظارك . إنه قد أتى ياسيدي .
جولدفنش : آه منظارى الذهبى ؟ إني سعيد بأن يعود إلى مرة ثانية .

[يلبسه ويتم لكل شخص]

مسز جولدي : جميل . إنك تبدو فيه أنت نفسك ثانيا .
جولدفنش : وكذلك أشعر أنى أنا نفسى . جريجورى . تفضل منظارك .
أشكرك على أن أعرتنى إياه ، ولكنه لا يوافقنى . وإذا كان فى
الدنيا أشخاص لاخلق لهم ، فإنى أفضل أن أشقى وأضل ،
على أن أشك وأخطئ . فى الحياة !!

عبد العزيز عتيق

(نهاية الرواية)

الضعيف

للمؤستاذ محمد سعيد العرياني

ود توفيق لويهجر المدينة وأهلها ويقطع صلته بالناس فترة من الزمان ، فإنه ليجد لذة ويحس أنسا أن يفارق هذه الصور التي يطالعها وتطالعه كل صباح ومساء ؛ لقد أطافت به نوبة من الضيق والمال حتى لا يلقى أهله إلا بوجه عابس وطلعة متجهمه ، ودق حسه حتى أصبح سريع التأثر قريب الانفعال ، وكان في إجازة طويلة ، والجو حار يهيج الأعصاب ويثير النفس ويبعث على السأم ، وإنه ليعيش بين أهله ولكنه يشعر بالوحشة والانعزاد ؛ فلا طاقة له على البقاء في البيت ساعة من نهار ، ولا يجد في القهوة ما يسلي نفسه ويشغل فراغه ؛ وقد هجره أصدقاؤه جميعاً إلى المصايف أو إلى بلادهم ، وخلفوه ونفسه يمارع الهم والوهم والوحدة والالم ... !

وتصورت في خياله القرية التي مس ترابها جلده منذ ربع قرن ، والتي لا يندكر — لبعد العهد — متى هاجر أهله منها إلى المدينة ، ولمه ... ؟ لاشك أنه سيجد هناك من جدة العيش وطرافته ما يحمل عن صدره أثقال الهموم ويهدي إلى نفسه الموحشة بعض الأتس والهدوء والدعة .

وتراقصت أمام عينيه صورة جذابة من حياة القرية ويسر الحياة فيها بعيداً عن أسر التقاليد وتكاليف الحضر ، وحضرته ذكريات حلوة من زياراته القليلة لأخته في القرية ، فذكر مجالسه مع شبانها على حافة الباقية تحت شجرة التوت

الغايظة تساقط عليه ثمراً شهياً ، ورياضاته في جلاببه الفضفاض تحت المعطف الأبيض على شاطئ التربة وبين الحقول ، يتملى بجمال القرويات غاديات رائحات من التربة وإليها أسراباً أسراباً يجررن الذبول ، ويحملن الجرار على رؤوسهن ، ويهمسن بالغناء الساحر تسيل في نبراته الرقة والعذوبة والحنين . وذكر يجالس الأنس والسمر في الليلة المقمرة على مصطبة الدار ، وحديث القرويين يتنقل في لذة وسمر بعيداً عن التزويق والادعاء الفاخر وزهته مظاهر التبجيل والاحترام التي تحيط به هناك .

وفي اليوم التالي كان القطار يغذ السير بتوفيق إلى القرية ، وقد أشعل بين أصبعيه دخينة وسبح في أحلام لذيذة يهدوء القرية وسحر بناتها . . .
وتلقته أخته بالترحيب والعناق ، وجلست إليه قليلاً تحدثه ويحدثها ، ثم تركته لتتبرأ له الطعام بيدها ، طعام القرية الشهى الدسم اللذيذ . وتوافد عليه عارفوه وشبان أسرته يحويونه ويتجاذبون وإياه أطراف الحديث ، يقطعون بين فقراته بالمكررة والسؤال عن الصحة والأحوال !
وخرج معهم في العصر يطوف بأزقة القرية يتعرف إلى الوجوه والأبنية ، واخترق سبلاً وعرة بين الحفر وكومات السمد ، وبيوتا متواضعة متقاربة كأنما تدانت للعناق . وانتهى به المطاف إلى دار له بها عهد ؛ لأن صاحبها من ذوى قرابته ، واجتمع لفيف من شبان القرية وشيوخها يبعثون التاريخ ، ويتناولون أبناء القرية وحوادثها ، وأبناء السياسة أيضاً ، وإن لهم في السياسة لأحاديث لا تخلو من حكمة وبعد نظر !

وأعجب توفيق بحديثهم كما تعجب بحديث الطفل ، فأنصت إليه في لذة وأنس ، كما يستمع السائح المؤرخ إلى خرافيات دليله الجاهل عن سر أرباب الهول وأطراف وادي الملوك !

وأدبرت فناجين القهوة ، وانهقدت في جو الغرفة بسحاب الدخان ، واشتد
الحرق فأسال العرق على الجباه ؛ وشعر توفيق أنه يكاد يَحْتَنق ، وأن أعصابه
تخونه ، فهم بالانصراف ولكنهم ألحوا عليه أن يجلس يجلس .

وأخذوا في حديث الشياطين والجن ، فراح كل واحد منهم يحدث بما سمع
وما رأى وتفنت عبقرية الجهل في اختراع القصص المروعة والروايات الغريبة
وظففتوا يعددون الشياطين بأسمائها وحراذئها وضحاياها ... وأشار « الشيخ »
بيده فأنصتوا ومالوا برءوسهم إليه ، وقد أخذ يرقص شاربه وترتجف شفاته
في انفعال عصبي ، وشرع يقص على الحاضرين قصة العفريت الذي كان يتصور
عليه البيت وهو شاب ليالى متتابعة ، فيقاسمه طعامه وشرابه ، وفراشه أيضا ،
فلا ينصرف إلا مع أذان الفجر ، والزنجية الحسنة التي كانت تصحبه ليالى
فتحتل موضعه في الفراش ، وتضطره أن يقضى الليل معقودة يده خلف ظهره
ورأسه بين ركبتيه إلى حائط الدار ، ثم لا يفارقه العفريت وصاحبه قبل الصباح
إلا بنفحة من دراهم أو عصوين من نار تلهبان ظهره ؛ جزاء رضاه أو سخطه
على ما يصنعان ...

وكان حديثا غريبا على الضيف ، فحاول أن يتفلسف وينكرو ويعلل ، ولكنهم
أنكروا منه ذلك ، وطلبوا إليه التسليم أو يتعرض لغضب الشياطين وأذاهم ؛
وكانت أعصابه مهيأة للتسليم فسكت . واستمروا يتحدثون .

وأحس رعدة خفيفة تمشى في جسده ، فسحب رجله في هدوء فدفنهما
في أطراف ثيابه ، وجمع يديه في حجره ، ومال إلى المحدث يستمع إليه هادئا
منصتا في شبه إيمان . لقد حطمت هذه الليلة الصاخبة أعصابه ، وهاجت وساوس
نفسه المريضة .

وانتهت السهرة ، ولكن صاحبنا ظل جامدا في مكانه ، لم يهم بالقيام حتى
دعوه ، فنهض كيلا يمتراخيا يكاد يسقط من إعياء . وشيعوه إلى دار أخته

وهو سار بينهم يتعثر في أوهامه ...

ووجد أهل البيت نياماً فلم يبق ساهراً في انتظار عودته إلا مصباح ضئيل
مرقد في الردهة ، يرقص لهبه على عذيف الهراء . وكان يعلم أنهم أعدوا له
غرفة في الطبقة الثانية ، فصعد في السلم بطيئاً متثاقلاً يتلفت بين الخطأ ، والمصباح
في يمينه . ودفع باب الغرفة بسرّاه فسمع صوتاً يشبه أنين المستصرخ ، فأدار
ظهره في فزع لدى من هناك ، ولكنه لم يجد شيئاً ، وعاد يدفع الباب ، فسمع
حشرة خشنّة ، ثم ضحكة بشرية ناعمة ... !

ووقف في وسط الغرفة يقلب بصره بين زواياها في رعب وفزع ، وكانت
به رغبة في التدخين ، ولكنه لم يجرؤ أن يذهب إلى الغرفة الثانية — حيث
أودع حقيبته — ليستحضر بعض التبغ . وخلع نعليه وهو جالس على حافة
السريّر ويداه ترتعشان ، وتتجاوب في أذنه أصوات غريبة تفزعه وتسلبه
الطمأنينة . ودفن نفسه في الفراش ، واستلقى على ظهره وقلبه يدق دقات عنيفة ،
وكأن يداً غليظة تقبض على عنقه ، وأشباحاً خفية تطيف به .

وكان يعلم أنه ليس فوق السطح غير أكاداس من الخطب والوقود ،
ولكنه أحس دبيب أقدام ، وسمع أصواتاً غريبة هامسة ليست من صوت
البشر ! أترأه أغضب الشياطين فأرسلوا إليه عفريتاً ينتقم منه ؟

وضاقت أنفاسه ، واضطرب فكره ، واشتد ضغط الوهم على صدره ، وهم
أن يصرخ ويستنصر ، ولكن صوته احتبس ولم يتحرك لسانه . وشبه له
أنه يرى شبحاً من الضباب في شكل غير إنساني — وإن كان يمشي على رجلين —
ينسل من النافذة مع ضوء القمر ، ويشير إليه بالصمت في إنذار وتهديد ... !
وسحب الغطاء يخفي عينيه في حركة آلية ، لكنه أحس شيئاً بارداً يلمس
أطراف قدميه ، فاستوى جالساً وأفلتت منه صرخة مخنوقة ، وتوارت الأشباح
فلم يبصر شيئاً ، ولكن مهمة غير مفهومة ، وديباً وهمساً ، وأصواتاً غريبة ،

تصك أذنه من بعيد . واستلقى ثانية على الفراش وهو يحرق في الحائط الذي أمامه تحديق الخائف المذعور ، فقد أبصر ظلاً أسود مطبوعاً عليه ، يحرك رأسه ويشير بيديه كأنه يتحدث إلى شخص بعيد . وود توفيق أن ينظر إلى ما وراء ليرى المشار إليه ، ولكنه خاف ؛ واستمر الهمس والديب يرنان في أذنيه ، وتتراقص الرؤى والأشباح أمام عينيه ، فلم يمْ لياته ؛ وفي الصباح ، مع أول خيط من ضوء النهار ، كان جالسا في فراشه يصفق بيديه في عنف يستدعي الخادم . ودخلت أخته تحيه ، فراعها مارأت في وجنتيه من صفرة الخوف وإعياء السهر ، وقالت له « توفيق ، ماذا بك ؟ » .

— « لاشيء ، ولكني مسافر اليوم فأعدى لي ركوبة إلى المحطة » .

— « مسافر ؟ ولكنك عرفتني أمس أنك قد تمكث لدينا شهرا ، فلماذا

غيرت رأيك ؟ » .

— « لاشيء ، لاشيء ، قلت لك لاشيء . إن حقيقتي في الغرفة الثانية » .

وآلمتها لهجته فطفت شفتيها آسفة وخرجت تنفذ ما أمر به ، ثم عادت

تسأله « حدثني يا توفيق ، هل تأملت من شيء هنا ؟ »

— « لا ، ولكني لم أخبر أمي أمس أنني مسافر ، فأخشى أن يقلقها غيابي

أو يؤلمها ، لذلك سأعود » .

— « ليتك لم تحضر يا توفيق » . وانصرفت لبعض شأنها .

وحين تناول توفيق حقيبته من حيث وضعها أمس ، أفلتت منها ورقة

فظنها سقطت منه ودسها في جيبه قبل أن يقرأها .

ولما جلس في القطار ، وضع يده في جيبه ليخرج شيئا ، نعث بالورقة ونثرها

بين أصابعه يقرأها وضحك توفيق وشاع في وجهه السرور حين عرف

بما هناك ، لقد كانت أخته تربي له ماعزة ولوداً ، فكتبت له هذه الورقة أمس

تخبره أن في ضيافة ماعزته فوق السطح جديا فلا يفزع ديبهما ، ريثما ترد

الجدى إلى صاحبه في الصباح . . .

لقد خاف توفيق وفزع ليلته ، لأنه كان يظن أنه وحده ضيف البيت . . .

محمد سعيد العريانه

صوت المعلم .

« قصيدة الأستاذ عبدالعزيز عتيق التي أعدها
لحفلة الذكرى التي شرفها معالي وزير المعارف السابق
الدكتور محمد حسين هيكل باشا »

رائد النور في ربا النيل أقدم حبذا عهدك السعيد وأنعم
حبذا أنت للمعارف يرعا ها فؤاد بالحب والخير مفعم
وثبت للأمام في عهدك الزا هي ، ونالت على يديك التقدم
ومضت تنشر الضياء على الوا دى ، وتمحو بفيضه كل مظلم
خرجت للحياة تبنى وتعالى كل ما مال ركنه أو تهدم !

عبرى الآمال لم يك يوما بسوى المجد والعظام يحلم
وجرى تراه يقدم فى الحق م إذا غيره عن الحق أحجم
شرعه العدل والإخاء مع النب ل ، ومن كان شرعه ذاك يعظم
وعجيب آياته يتجلى نورها بيننا ولا يتكلم !

ياوزير الإصلاح ، يرائد النهم ضة فى مصر ، يانصير المعلم
كل يوم لكم جديد من الفض ل ، ودنيا عظيمة لا تقوم
ياوزير الإصلاح ليس كثيراً أن نرى رأيك الرجيع المقدم
فقد يما هفت فينا جريئاً فاستجبنا إلى النداء المنعم
وقديما دعوت للأدب الحر م ونسج من الثقافات محكم
وقديما خلقت جيلا من النش ، طموحاً يهوى الجديد ويفهم
كلمات من نعمة الله كانت تمشى بنا شفاء وبلسم
كلمات فيها ابتكار وعمق ولها سطوة وسحر مجسم
كل من ذاقها تنبأ بالمج د ، ويوم فيه تسود وتحكم

والذى أنعم النفوس هوى أنك - فيما أتيت - بالحق ملهم

ياوزير البيان، فى مصر دار قدست ففى كالحطيم وزمزم
هى «دار العلوم» معجزة الشر ق، وأستاذة الذى ليس يهرم
حملت راية الخفيف وصانت لغة الدين عن عي وأعجم
ومشت بالضياء والجهل فاش وصحت للجهد والقوم نوم
لا يقل مغرض: وأين جناها؟ إنها بالدم المقدس تخدم
طاب منها الجنا، وليس عجيباً وجنا الناعين صاب وعلقم

من كذى الحسناء أخلصت الود م إلى النيل رغم طول التحكم؟
كل عام لها جديد من النش ء كأتى بهم شمس وأنجم
أنشأتهم مباركين فيها ت فى منهم على الشر يقدم
لقتهم معنى التواضع والإي ثار والصبر والرضا والتبسم
معشر كل همهم أن يكونوا رسلا تشرق الحضارة منهم
والذى نشهد العشية معنى من معان لهم تجل وتعظم
ليس «دارالعلوم» ماقلت، لكن هى أسمى مما ذكرت، وأقسم!

ياوزير البيان، يارائد الفك ر، وبأعدل القضاة وأحكم
المربون فى زمانك يرجو ن شفاء من الشقاء المثلث
المربون عدة النيل كادال يأس يسطو على هداهم ويهجم
نظرة منك فى اقتناع وصدق ياوزير البيان تقضى وتبرم
ورحيم من ينصف الناس شتى والذى ينصف المعلم أرحم

عبد العزيز عتيق

قصيدة الأستاذ عبد العظيم بدوي

ذكرى أبي الفتح !

ترامت عطاشاً شاحبات أزاهره وذابت أغانيه ، وضجت حناجره
 وصرت على أعشابه ورقاته وجفت على ثغر الطيور بشاره
 وشقت عذارى الورد حرجيوبها كما تدب الميت الكريم حرائره !
 وأعولت الأرواح في جنباته وصاح نذير الأيك أن فض سامره
 فلا الغصن مياس ، ولا النور ضاحك ولا تنشد اللحن الطروب عصفاره
 ولا الزنبق الغيسان يتفح نده كما تنفح المسك العطير مجامره !
 ولا الكرم يزهي كالغواني بقده عناقيده نشوى ، ونشوى غداثه !
 كأن اصطفاق النهر تحت ظلاله صراخ يتيم أسود الجسد عاثره !
 تبهم للروض الغناء فغاله فيا بؤسه في مآتم الروض شاعره ..

لمحت به غيداء في ظل دوحة تمرغ في العشب الذي جف ناضره
 تألق صفو الرمل في صفو عينها وجات به آرامه وجآذره
 تمزق فرعا كالدجى ، وغلائلا نواضع كالرود استيحت بواكره
 ترى ياهزار الأيك من تلك ما اسمها وما خطبها يطغى وتطغى مقادره ؟؟؟
 فقال : اسمها التصحى ، ومن غيد يعرب وصاحبة الروض الذى أنت عابره !!!

حدثت إليها الخطو أسوان خاشعاً يساور قلبي نحوها ما يساوره !
 حنانيك ، رفقاً يا فتاتى ، وأجلى عزاء ؛ فكون الله تلك مضارره !
 فصعدت الحسناء طرفاً مخضباً وصاحت ، وقانى الدمع يسفح قاطره :
 « معاذ حنانى أن أكفكف عبرتى ويهدأ فى الصدر الممزق نائره !

فما شئت يا دهرى خطوباً فهاتها فأول خطبي في «أبي الفتح» آخره»

وتم عجز خضب الشيب فودها وأوهنها الخطب الذي شب ساعره
ترامت على ظهر الكتيب وولولت يشاظرها النخل الأسى وتشاظره !!
يحار بجفניה من الدمع قاني فيرفض هاميه ، وتدمى محاجر
تبلغ نور الحق من نظراتها كما انقلب الإصباح يسطع باهره
فلو أن هذا الكون سر محجب أميطت بهذا النور عنه ستائر
تري ياهزار الأيك
فقال اسمها؟ يا ويلتا، حرت في اسمها وقد كنت أحجو أنى اليوم ذاكره
هي الحكمة الغراء، أودى حكيما وظلت خلودا باقيات مآثره

وتحت ظلال الدوح شيخ مهدم عليه جلال تستيك مظاهره
تكاد إذا ألفيته متأملا تصيح : أرى لقمان يبعث غابره
تخال بريق الدمع في وجناته ندى في جبين الصبح ينضح عاطره
تري ياهزار الأيك من ذاك من أرى وماخطبه يطغى ، وتطغى مقاديره؟؟
فقال : تري «سقراط» يندب حظه لذكرى «أبي الفتح» استجنت خواطره

أبي، يالواء الدار ، ياذوب قلبها ويادما المشبوب كالنار زاخره
أبي يا أبي الروح ، ياشعلة سرت ليهدي بها في حندس الليل سادره
أبي يا كبير القلب والنفس والحجا ، ويا أمل الدار المصوح زاهره
أبي باعطوفا كالنسيم إذا سري ترف كانهفاس العذارى بوادره
أبي يا أبي .. قد ببح صوتي ألا أرى مجيا سوى الصمت الذي طم غامرته؟

قضيت إذاً ، وانفض عرس نظمته خبا عزف شاديه ، وهسهس زامره !!

حنانيك أدركها ؛ فقد عصف الردى بها ، وعفا الربع الذى أنت هاجره
تمرت الذؤبان فى عرصاته ومن عجب يبنى الأناة غضافه
لنا معهد من دونه الشمس محتدا تألق ماضيه ، وأزهر حاضره
جميل لدينا أن يهدم فوقنا وليس جميلا أن تخط حفائره
تعاوره الرامون من كل جانب فرام يغاديه ، ورام يباكره
يريدون أن يقف من الليل نوره ومن دون مايبنى البغاة عباقره
وماذا يفيد السيف فى حومة الوغى إذا اصطك بالصخر الممرد بآثره ؟

سلوا نائح الطلح المهوم : من ترى إذا هجع النوام هب يسامره ؟
سلوا النرجس الفواح من كان فى الضحى

تشغفه عيّدانه ومزاهره ؟
وميلوا على وادى الضحايا وسائلوا به دمها الغالى تشج مقابره
ترى يادم الأبطال من حجب الردى إليك ، ومن ناحت عليك قياثره ؟
أناشيد من « دار العلوم » يصوغها شباب نبيل الروح والقلب طاهره
ففى كل يوم شاعر يسحر النهى إذا ماشدا فالكون طرا منابره

« أبا الفتح » لا يحزنك ما صنعت بنا .. خطوط ؛ فإن الغاب يحميه زائر
تحوم الذئاب العاديات حياه .. وترتد إما روعتها أظافره ..
وزير له فى الحق أية صيحة تقف بها فى « منزل الوحي » شاعره
يضج بها « وادى الحجيج » كأنها هتاف الملي جاوبته مشاعره
طروب لها « يس » فى القبر أنها نشيد الهدى ، فيه تعد مفاخره

كأن صداها في الربى الفيح رنة لصوت بلال رجعتها منائره

« أهيكل » قد أدبت لله حقه وللآدب العالى تدانت أوامره
وللسمحة الغراء شرعة أحمد وللوطن العاني إذا اشتط أسره
وللنور والعرفان لم تال رافعا لواءهما الخفاق يبهر ناظره
ملأت ربوع الشرق علما وحكمة وفلسفة يهدي بها اليوم حائره
رعت « ابنة الصحراء » في خدر بيتها وقد شيد في ظل « المنيرة » عامره
تصدى لها رهط البغاث فرعته فريع فولى مدبرامك طائره

وحولك أبطال إذا اصطخب الشرى فمن بينهم أشباله وقساوره
وأبناءؤها الأبرار من كل هاتف بمجد أمه والنجم يرعاه ساهره
جراحاتها تنزو ، فتنزو جراحهم إذا ما كفر الليل واسود كافره
توثب يحدوهم « نجيب » إلى التي حدام « أبو الفتح » المخلد غابره

أبا الفتح لا يحزنك ما صنعت بنا الـ عوادى ؛ فإن الغاب يحميه زائره

عبد العظيم بروى

فهرس

العدد الثاني من السنة السادسة

صفحة	الموضوع	الكاتب
٤	إحياء ذكرى المرحوم « أبي الفتح الفقي »	١ - كلية الأستاذ نجيب حتاته ٢ - كلية حضرة صاحب المعالي
٨	توحيد التعليم في معاهد تخرج معلمي اللغة العربية	وزير المعارف السابق مذكرة معالي الدكتور حسين هيكل باشا
٢١	هل جنى الشعر الجاهلي على الأدب العربي؟	الأستاذ علي التجدي ناصف
٤١	الحلال الوزير الإسلامي	» محمد أحمد برانق
٥٢	الخرافات	» عبد الرازق حميدة
٧١	التربية الإسلامية - ٢ -	» محمد علي مصطفى
٧٩	خالد الأندلس	» عبد العظيم قناوى
٨٧	فنون الأدب : منابعها وبواعثها	» عبد الحميد حسن
٩٣	المنظار (قصة مترجمة)	» عبد العزيز عتيق
١٠٩	الضيف (قصة مصرية)	» سعيد العريان
١١٤	صوت المعلم « قصيدة »	» عبد العزيز عتيق
١١٦	ذكرى أبي الفتح « قصيدة »	» عبد العظيم بدوى